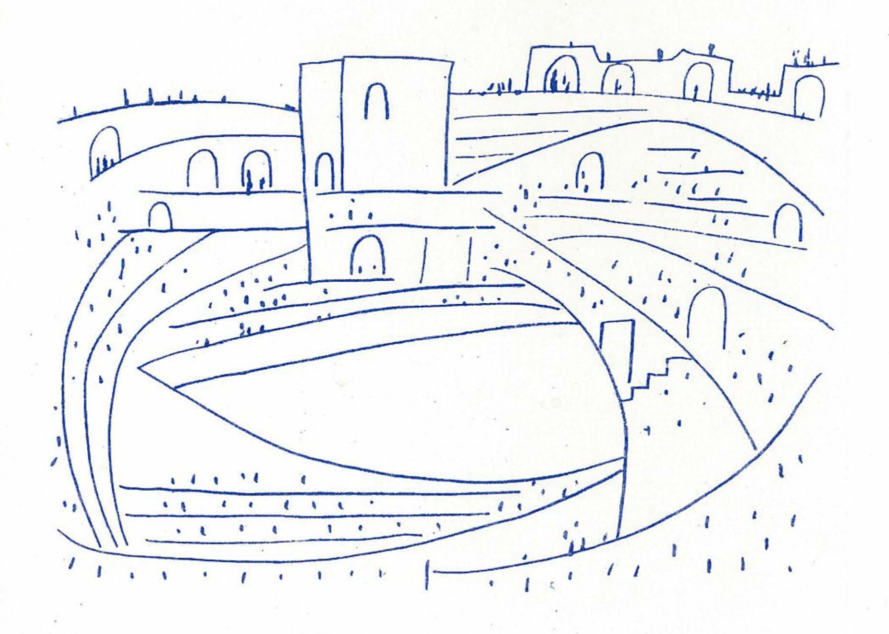
محمد كامل الخطيب

المُدُن السّاحِليّة

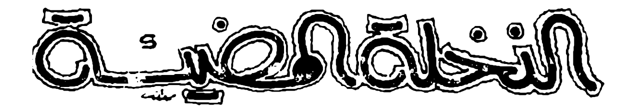


قصص ٥ ———— ٢١٠٠

• محمد كامل الخطيب
• النخلة المضيئة
• قصص
• الطبعة الأولى ١٩٧٨
• الطبعة الثانية ٢٠٠٠
• منشـــورات ٢١ ٠٠

مطبعة اليازجي
دمشق هاتف : ٢٣١١٢٧٩

محمد كامل الخطيب



مجموعة قصص

حكايات

١ ـ الحرب والسلم
٢ ـ الكلمات المتقاطعة
٣ ـ الأزهار كالنساء
٤ ـ الحفلة

١ - الحرب والسلام

. . . على الحائط ، مقابل الباب الذي فتحه بقدمه ، واجهته صورة كبيرة لأرنست همنغواي ، وكومضة تذكر الصورة التي يزين بها غرفته ، تحتها تماماً كان ثمة طاولة وكان — ذاك — يجلس يقرأ على ضوء مصباح زيتي ، كان يقتعد كرسياً خشبياً ، أجفل ، وحاول أن يتناول مسدساً عن طاولته ، لكن رشة من بندقية الداخل أوقعته .

بعد أن سقط ، وعلى الرغم من حراجة الموقف ، لم يتمالك الداخل نفسه ، وأخذ يحدق إلى صورة الحائط الكبيرة ، إنها الصورة نفسها التي يزين بها حائط غرفته ، صورة همنغواي يرتدي تلك الكنزة الصوفية ذات الرقبة . وعلى الرغم من دقة الموقف مرة أخرى أجال الداخل عينيه على حيطان الغرفة ، كان هناك صور كثيرة لمجموعة أطفال جياع ، ومجموعة صور نساء عرايا ، ولوحة

لشاجال ، أهي المصادفة كذلك أن تكون حيطان غرفة الداخل مغطاة كذلك بصور أطفال جياع ونساء عرايا ؟

منظر الكتب على الطاولة أثار فضوله ، تقدم إلى الطاولة، كان الكتاب الذي يقرأه هو الحرب والسلام ، مرة أخرى كانت هناك مصادفة ، ففي الشهر الماضي قرأ – هو – كذلك الحرب والسلام ، إضافة إلى الحرب والسلام كان هناك كتاب مجموعة أشعار لبريخت ورواية لد . ه . لورنس ، هي عشيقة الليدي تشاترلي ، والجريمة والعقاب لديستويفسكي ، كانت الكتب باللغة الانكليزية ، وهي اللغة التي يتقنها – هو – كذلك . كانت هناك على الطاولة محفظة نقود ، ورسالة مفتوحة حديثاً ، وأخرى لم تنته كتابتها .

– هل كان يجيب على رسالة ؟

في طريق العودة من المهمة ، كان الجنود الذين أدوا مهماتهم بنجاح يضحكون ، أما هو فقد كان يفكر : لو سبقني ، وجاء إلي قبل أن آتي إليه – واحدنا سيأتي الآخر حتماً – ورأى في غرفتي – كذلك – صورة همنغواي نفسها وصور النساء العرايا والأطفال الجياع ،

ورواية الأخوة كارامازوف ولوحة بيكاسو ،والرسالة التي أرسلتها عائشة ، بل ورأى رواية الحرب والسلام على طاولتي . . لوسبقني وجاء . . . ترى ، في طريق عودته من مهمته ، وبينما جنوده يضحكون وقد نجحوا في مهمتهم .. ترى بماذا كان سيفكر ؟ ؟ .



٢ - الكلمات المتقاطعة

اعتدت أن يكون في المقهى . عندما آتي كل مساء ينظر إلى الصحف التي أحملها ويبتسم ، ولأنه الوحيد الذي تعرفت إليه في هذه المدينة ، فقد كنت أجلس إلى طاولته . ولما لم تكن معرفتنا وثيقة فقد كان مدى الأحاديث بيننا قصيراً ، ومحدوداً . . إنني في العشرين وهو في الأربعين أو أكثر . . ما المشترك بيننا إذن ؟ . . . وهكذا ، ما أن أجلس إلى طاولته – ربما سبب جلوسي إلى طاولته أن المقهى يكون مزدحماً في الأماسي – حتى أبدأ في مطالعة الصحف التي أحملها – إنني أحب قراءة الصحف والمجلات في المقاهي – ودائماً كان يطلب استعارة صحيفة مني ، ويفتحها فوراً على زاوية الكلمات المتقاطعة . . . بقيت أكثر الصيف أراقب تصرفه هذا . . كان يحل الكلمات المتقاطعة في كل الصحف والمجلات التي تقع بين يديه . . . بل كان يستعير من الناس في المقهى الصحف والمجلات التي يشترونها أمامه ليحل كلماتها المتقاطعة . . . لم أره مرة واحدة ينظر

في الصفحة الأولى لصحيفة أويقرأ خبراً ، أويتفرج على صورة في مجلة . . . وأواخر الصيف الماضي ، عندما وقعت الحرب أخذ في الأيام الأولى يقرأ الأخبار ويتفرج على الصور في صحف رواد المقهى . . . وفي الأيام الأخيرة ، صار يشتري كل مايصل من صحف ومجلات ، ويقرأها ويحكي للناس الذين صار يجلس معهم عن آخر الأخبار . . .

أمس ، مساء ، دخلت المقهى حاملاً صحفي ، كان المقهى مزدحماً . وكان وحيداً يجلس إلى طاولته المعهودة . . حييته وقعدت معه.. . ووضعت صحفي على الطاولة . . . ودون أن يتكلم تناول إحدى الصحف ، وفتحها فوراً على صفحة الكلمات المتقاطعة .



٣ - الأزهار والنساء

كان اسمه علي الغور ، وكان يقاسمني التبغ والشاي والأزهار وحكايا النساء الجميلة . مرة حدثني عن الحب في البادية ، ومرة حدثني عن طفله الذي سيدخل المدرسة هذا العام ، ومرة أعطاني باقة أزهار جمعها من الحقول حول معسكرنا . كان يسألني ويسأل غيري عن كل مايسمع أو يرى : لماذا ترتفع الأسعار ؟ لماذا لاتتزوج الفتاة من تحب ؟ لماذا لم نستطع حتى الآن القضاء على اسرائيل ؟ مارأيك بفلم غراميات هاملتون ؟ . . . . .

في ليالي الخيام حدثني عن البادية والربيع في البادية ، والليل في البادية والأغنام في البادية.حدثني عن شيوخ العرب والهجانة وأشعار الصحراء . كان يحدثني وهو ينظر إلي مرة وإلى باقة أزهار على طاولته مرة ثانية .

منذ شهرين قال علي لي بأنه سيتزوج . قال : سأفعلها . سأعمل مرة في حياتي ماأريد . . . وليلتها في خيمته ،

حدثني عن حبه في شبابه وكيف لم يعطوه التي أحب وأحبته
ثم أحرقت نفسها ، وهرب هو من مدينة إلى مدينة ثم تطوع
في الهجانة ، وبعدها أجبره أهله على الزواج . . . كان
يتحدث وعيناه تنظران إلى باقة أزهار على الطاولة قال لي :
زوجتي طيبة ، وأنا أحبها ولي منها طفلان ولكن . . . .
لكني أشعر أنني تزوجتها على غير إرادتي . . . أريد أن
أفعل شيئاً باختياري . ولدت ورعيت الغنم وهربت من
عشيرتي ودخلت الجيش ، ودائماً كنت مجبراً . . . وقبل
أن أموت — إنني على أبواب الكبر — أريد أن أفعل شيئاً
باختياري . كان يحدثني وكنت أنظر إلى باقة أزهار على
طاولته كان قد جمعها في النهار . . . حدثني عن أمور
كثيرة . . . حدثني عن حنينه للعودة إلى البادية ، عن حنينه
للعشب وقطيع أغنام يسرح به ، وقهوة مرة يشربها تحت
خيمة صحراوية وأزهار يجمعها في ربيع الصحراء . حدثني
عن مشاوير له في القامشلي مع حبيبته التي أحرقت نفسها
وأنه مايزال يتذكر الأحاديث والحركات وكأنها حدثت
أمس ، وأنه لايصدق أنها ماتت وأنه تزوج غيرها . . . .
قال لي : صدقني . . . مازلت أعيش معها . . وكل نهار
عندما تراني أجمع الأزهار في الحقول . . . أكون معها .
كان يتكلم وعيناه تنظران إلى باقة الأزهار على الطاولة

حول نظره عن الأزهار ونظر إلي قائلاً : الأزهار كالنساء ...
كان يحدثني في خيمته ، وفي خيمتي وفي تجوالنا في الحقول حول معسكرنا . . وكل يوم يجمع باقة أزهار لخيمته ، وبعد تصادفنا صار يجمع لي باقة أزهار كذلك .

حدثني عن فتيات المدن وجمالهن ، وشهوته لواحدة منهن ، مرة تمنى لو تستطيع زوجته أن تلبس مثلهن . . .
ودائماً كان يسألني : متى ستتزوج أنت ؟ حتماً ستحصل على واحدة منهن .

أمس في الصباح جمع باقتي أزهار وأعطاني واحدة وهو يقول : ربما تكون آخر باقتين نجمعهن هذا العام كل عام وأنت بخير ، الربيع انتهى والشمس أحرقت العشب . .
بعد الظهر قصفت الطائرات معسكرنا للمرة الرابعة هذا العام . فقتل علي الغور على مدفعه المضاد للطائرات .

واليوم ذهبت إلى قبره حاملاً باقتي الأزهار اللتين جمعهما أمس . على قبره رأيت زوجته ذابلة تبكي ، وتحدق إلى الأزهار ذابلة منثورة على قبره . تذكرت قوله : الأزهار كالنساء . وضعت الباقتين ، وبيني وبين نفسي كنت أقسم : سأظل كل ربيع أجمع الأزهار لذكراك ياعلي الغور .

٤ - الحفلة

« إذن لاعمل » قال لنفسه وهو يتوقف ليشعل سيجارة ، ثم عاد يتابع مسيره وهو يقول :

« لم تبق إلا محلجة القطن في الصاخور » نفث دخان سيجارته وهو ينظر إلى فتاة عبرت محاذية ومع عبورها عبرت نسمة عطر « أه . . . . ماأروعها » قال في نفسه ثم التفت إلى الوراء متابعاً أياها ببصره. استدار وسار وراءها « بنات حلب جميلات » نسمة عطر ثانية مرت من قربه وكانت تتأبط ذراع شاب . حملق إلى الشاب وقال « ماهمه . . غني » في ذهنه حاول أن يقارن بين هؤلاء الفتيات اللواتي يراهن في الشارع وبين فتيات قريته « ترى كيف تبدو فتيات قريتي إذا لبسن مثل هذه الثياب » كان مايزال يتابع الفتاة . غابت عن بصره وعاد إلى أفكاره الأولى : « لكن العمل في محلجة القطن إذا شغلوني مؤقت والأجور قليلة . . نقودي لن تكفيني أكثر من ثلاثة أيام » وفي دخيلته أخذ

يلوم نفسه لأنه اعتاد تدخين السجائر في الجيش « ترى ماذا حدث لرفاقي في السَرية . . . هل يبحثون عن عمل مثلي ؟ عواد الحسين مات في الحرب واستراح من البحث عن عمل » .

كان الوقت يقارب المغيب ، وكانت الشوارع الرئيسية ملأى بالناس والسيارات والضجيج ، لم يعرف كيف غابت عن بصره الفتاة التي كان يتابعها ، وصل إلى الحديقة العامة وكانت مزدحمة كذلك ، وبين جموع الناس داخله السؤال التالي : « كيف سأستطيع ايجاد عمل بين هذه الجموع » فكر قليلاً فداخله سؤال ثان : « إذا كان كل هؤلاء الناس يعملون فربما أستطيع ايجاد عمل مثل أي واحد منهم سأذهب غداً إلى محلجة القطن وبعد انتهاء الموسم ، أبحث عن عمل آخر » قعد على مقعد وأخذ يراقب الناس : فتيات جميلات ، أناس يرتدون ثياباً فاخرة ويطيلون شعورهم ومعاطفهم ، عجائز يتحادثون بالارمنية . أناس مسرعون وآخرون مبطئون ، شريط ملون يمر أمام عينيه بينما كان يستعرض شريطاً آخر في ذهنه : عودته إلى القرية بعد تسريحه من الجيش ، الحفلة التي أقيمت والخروف الذي ذبح ، السهرة التي دعي إليها الأقرباء والجيران والأصدقاء ، لهفته للقرية ولها . ابنة الجيران التي شعر أنه يحبها في

احدى الاجازات وأنه يريدها هي لا ابنة عمه باسمة ، لكن الحفلة انتهت وأكل الناس الخروف وهنأوا شريف عبد الكريم بالتشريح من الجيش والنجاة في الحرب ، وها هو بحاجة للنقود ، نقود للثياب والسجائر التي تعلمها في الجيش ، نقود على الأقل ليظهر بالمظهر اللائق أمام هاشمة ، لقد عاد من الجيش كبيراً ، ولا مجال للاعتماد على الأهل مثلما كان قبل ذهابه إلى الجيش منذ أربع سنوات .

منذ أسبوع وصل إلى حلب بحثاً عن عمل . دلوه إلى متعهد بناء ، لكن المتعهد رفض تشغيله دلوه إلى معمل لكن المعمل بحاجة إلى معاملات وأوراق وزمن وهو يحتاج العمل فوراً ، دلوه إلى فندق لكن صاحب الفندق ليس بحاجة لعامل الآن ، واليوم دلوه إلى محلجة قطن في الصاخور ، وأكدوا له أن العمل مؤمن هناك « ماأكثر البنات في حلب » قال في دخيلته محاولاً الهرب من أفكاره ، عندما مر أمامه سرب فتيات قام وسار وراءهن ، ثم تركهن وتابع تجواله . خرج من الحديقة وسار باتجاه محطة بغداد ، ثم انعطف نحو الشرق متجهاً إلى السليمانية « لو أستطيع أن أتحدث مع فتاة » تمنى في نفسه وأخذ يتذكر أحاديث كثيرة سمعها من رفاقه في الجندية عن فتيات المدن وسهولتهن وأنهن

يذهبن مع من يقدم لهن الهدايا ويذهب بهن إلى الأماكن الفاخرة « ماذا لو كلمت هذه الفتاة الوحيدة » طرح المشروع على نفسه عندما رأى فتاة تسير وحيدة جميلة . . عن ماذا سأكلمها . . أين نذهب إذا وافقت؟ولالحظة بدا له أن المانع الوحيد لكلامه معها هو أنه لايعرف مكاناً يذهبان إليه . تذكر الحديقة العامة ويبدو أنه اقتنع بالفكرة . أسرع السير ووصل إليها حاذاها وهو ينظر إليها . غمرته غيمة عطر طاغ . عبرها بينما قلبه يخفق بشدة « جبان » اتهم نفسه ، ولمدة طويلة لم يجرؤ على النظر خلفه وعندما نظر خلفه — بعد مسافة طويلة — بعد أن قرر تكليمها مهما حدث ، كانت قد ضاعت ، رأى سرب فتيات يسير على الرصيف نفسه عبر من أمام أحد المقاهي . تذكر أنه بحاجة لأن يبل ريقه ، دخل.شرب فنجان شاي. بقي قاعداً زمناً طويلاً ، وعندما خرج كان قد نسي بماذا كان يفكر خلال بقائه الطويل في المقهى .

عاد إلى الشارع . كان زحام الناس والسيارات قد قل ، عاد إلى ذهنه مشروع محادثة فتاة « كم هي مغرية فتاة معطرة ووحيدة . . كيف أبدأ الكلام . . كيف سأقول لها مرحباً . سأسألها كم الساعة » . وشعر أنه بحاجة ليعرف

الوقت . سأل رجلاً عابراً فقال له بأن الساعة هي العاشرة « يجب أن أعود لأنام » وحتى لايعود من طريق المجيء نفسه انعطف في شارع جانبي ليعبر منه إلى طريق العودة . فجأة سمع صوت موسيقى تبدأ من مكان قريب . موسيقى صاخبة في قبو قريب . اقترب ونظر من نافذة القبو المطلة على الرصيف . كان هناك مجموعة كبيرة من الشبان والفتيات المرتدين ثياباً فاخرة يتخاصرون ويرقصون ، وقف يراقب « يبدو أنهم كانوا يستريحون وقد بدأوا الآن من جديد » ، «كل فتاة تخاصر فتى » سمع موسيقى صاخبة ورأى أثداء متدلية وأثداء نافرة وشباناً يعانقون فتيات جميلات بينما الفتيات يلوين رقابهن ويغمضن عيونهن انتشاء ، وقف يراقب شاباً وفتاة يدخلان باب البناية ثم ينزلان سلم القبو « يبدو أنهما متأخران » استنتج في نفسه . مر حارس ليلي فخاف شريف عبـــد الكريم أن يلاحظ الحارس وقوفه مقابل نافذة القبو . مشى . دار حول المنطقة وعاد يقف ويتفرج وهو يحس نشوة لسماع هذه الموسيقى ورؤية هذه الأثداء المتدلية وهذه الأثداء النافرة وهذه الأوجه المنتشيـــة وهـــذه الشفـــاه الـتي تتلاقى فتغمض العيون « مجموعة كبيرة . . أكثر من أربعين شاباً وفتاة » ، «كل واحد معه واحدة » قال في دخيلته ثم دار دورة ثانية حول

المنطقة وعاد يقف . تقدم إلى النافذة أكثر . تقدم إلى مدخل البناية؛ رأى السلم الذي ينزل إلى القبو وأسفله رأى الباب مواربا وقد فتح زجاجه الأعلى بينما شبان وفتيات يروحون ويجيئون حاملين السندويش « طريق المطبخ » استنتج . ولبث واقفاً على المدخل . عاد إلى الشارع ووقف مقابل نافذة القبو على الرصيف . أوجه الفتيات تزداد شهوانية واغماض عيونهن يزداد اطباقاً وجذوعهن تزداد تلوياً . نشوة قصوى رقصت داخل شريف عبد الكريم . أحس قلبه يدق عالياً ويشارك الموسيقى . تقدم إلى المدخل كان الباب مواربا . صوت الموسيقى يسمعه أقوى والأثداء المتدلية مشتهاة أكثر والعيون المغمضة مرغوبة وروائح العطر تشق القلب . واللحظة تذكر الحفلة التي أقيمت أقيمت في القرية عندما سرح من الجيش ، وكأيماض برق لمعت في ذهنه أربع سنوات قضاها محروما في الجيش ثم ثم الحرب والدم ودبابته المحترقة ورفاقه المحترقين ودخل . على باب صالة الرقص وقف مباعداً ساقيه كأنما يتهيأ لالقاء قنلبة كانت عيناه تشعان شهوة وفرحاً ورغبة بامرأة تتدلى أثداؤها وتغمض عينيها وتحرك رقبتها .

من منكن ترضى أن ترقص معي ؟

بأعلى صوته صاح . تنبهوا إلى أن غريباً قد اقتحم حفلتهم . توقف الموسيقى وانفصل المتلاصقون وتعالت أصوات .

اخرج . . اخرج . . . أخرجوه .

لكنه ظل صامداً ، مباعداً ساقيه ، واقفاً كأنه يلقي قنبلة :
لن أخرج . . أريد أن أسهر . . . لن أؤذيكم .
هجم عليه بعض الفتيان يخرجونه بالقوة ، بينما خرجت فتاة تنادي الحارس الليلي ، واقترحت أخرى طلب شرطة النجدة بالهاتف .

سحبوه إلى الشارع وهم يضربونه ويشتمونه وينادون الحارس الليلي . ألقوه إلى الشارع وعادوا . كان الحارس الليلي قد أتى وبدأ يركض وراء شريف عبد الكريم .
١٩٧٤



قصة واقعية

كنا نسير في الصحراء العربية وكانت الاثقال مربوطة إلى ارجلنا ، رأينا انفسنا نسير في المستنقعات وكان هناك جلادون يضربون ظهورنا بالسياط . كنا أكثر من قبيلة وقد ربطونا إلى سلاسل طويلة تقودنا الافيال والجمال وقد حملونا القرود على ظهورنا ، ومن فوقنا وكل ساعة تقريبا تمر في السماء طيور وطائرات وتلقي علينا جمرات نارية .

قال رفيقي :

الامر صعب :

قلت :

جدا .

ومن وسطنا تقدمت جماعة فيلة وداست من كان في طريقها ، وكان بينهم احد اصدقائي ، لكني لم اجد وقتا للحزن عليه .

إلى متى يستمر هذا .

سأل احدنا

لا اعرف .

اجاب آخر .

امرونا أن نحفر في الصحراء حتى تطلع الماء وحفرنا . امرونا أن نجفف المستنقعات جففنا . امرونا الا نصرخ من شدة الالم لكنا ما استطعنا .

سأموت قريبا .

قال مقيد .

سنموت جميعا .

اجابه رفيقه في السلسلة .

بصق رفيق لي فكانت بصقته حمراء. وفي الليل رأينا النجوم السداسيـــة والخماسية والسباعية تسخر منا وفي النهار كانت الشمس تحرقنا .

جاء حارس يحمل حربة ويلف جسده بجلد نمر مرقط ، نحرني بحربته ثم بصق في وجهي .وعلى مقربة مني رأيت جنديا يلبس ثياب الميدان الحربية يطلق رصاصاً من رشاشه على زميل لي . سمعت واحداً يقول :

لماذا يفعلون بنا هذا ؟

رأيت احد الرجال يقود سيارة مرسيدس ٢٢٠ ويمر بمحاذاة مسيرتنا وعندما رأى حبيبة صديقي ، امر الجنود أن يفكوا سلاسلها ثم ادخلوها سيارته . ضاجعها ثم اعادوا تكبيلها وعاودت رحلتها معنا .

كانت تبكي ، وكان حبيبها يبكي ايضا ، وكانت ترسل نظرها بعيدا عنه وعنا جميعا . فجأة ابتعد عنا الحراس مسافة ثلاثة كيلو مترات ، بعدها اتت طائرات وقصفتنا . قتل كثير منا ، ومن بقي تابع عذابه بعد أن عاد الحراس الينا .

لماذا لا يقتلوننا فورا ؟

سمعت معذبا يسأل آخر فيجيبه :

من سيعذبون اذا قتلونا .

عضتني افعى في يدي فعضضت مكان لسعتها حتى ادميت يدي شرقت الدم ثم بصقته ، وعندما رفعت عيني إلى الشمس احرقت الشمس عيوني ، خفضت رأسي ومضيت مع القافلة .

والنهاية ؟

سمعت احدنا يسأل .

ادخلونا مدينة هدمتها حروبهم وقالوا لنا اعيدوا بناء هذه المدينة فاعدنا بناءها . اخذونا إلى البحر وقالوا لنا اشربوه فشربنا ما استطعنا .

لماذا يفعلون بنا هذا ؟

سأل طفل ولد في هذا العذاب لكن اباه لم يسمعه ، وربما سمعه لكنه لا يعرف الجواب. جاء رجلان واختارا عشرة منا بينهم اخي ، واخذا يتدربان بهم على اصابة الاهداف بالسهام والرصاص

إلى متى سنصمد ؟

سأل واحد لكن احدا لم يجبه .

رأينا افيالا طائرة واسماكا تسبح في الهواء وعصافير تحمل على ظهورها حميرا ، رأينا جمالا تأكل اجساد رفاقنا الذين سقطوا تعبا ، ورأينا ملائكة تلغ في دمائنا .

مساكين . . . هل يوجد اسوأ من حالتهم هذه ؟

سمعت حماراً يسأل ضفدعة ، وكانا يرثيان لحالتنا ، كان واضحا انهما يحسان بشعور انساني نبيل جدا نحونا ، لكنهما لم يستطيعا الجهر به خوفا من أن يتعرضا لمثل ما نتعرض له .

ماذا فعلنا لهم ؟

سأل احدنا ، فتطلع اليه جاره دون أن يجيبه .

رأيت ثلاث افاع – معا – تنهش صديقا لي رأيته يسقط ميتا ورأيت الجمال تأكل لحمه وفكرت وقتها باننا سننتهي قريبا ، لكننا كنا نزداد .

لا ترحموهم .

سمعت جلاداً يأمر رجاله . بعدها اتت دبابات وداستنا بجنازيرها وكانت الشمس تحرقنا في الصحراء . فجأة طافت الدنيا بالماء حتى غرقنا إلى ذقوننا . جعنا فأكلنا هواء ، وبعد أن شبعنا ،شربنا كميات كبيرة من الرمال .

الهواء افضل من الموت جوعا .

قال رجل اعرف في اعماق نفسي انه يتمنى الموت، لكنه حكيم ويريد تشجيعنا على الصمود وانتظار أمل لا نرى بارقة تدل عليه .

الرمل محرق .

قال رجل وكأنه اكتشف حقيقة علمية جديدة ، أو تكلم لمجرد الكلام .

سلطوا علينا مجموعة من المدافع الرشاشة وبعدها اطلقوا علينا انواعا مختلفة من حيواناتهم المفترسة ، ولدهشي اننا لم ننتبه . عبرناالبحر سيراً على الاقدام وبدأنا السباحة في صحارى قرأنا على بابها لا فتات تحمل كتابات كثيرة لكننا نسينا ماذا كانت تتحدث هذه الكتابات .

اغرب من الحلم واصعب من الكابوس .

قال واحد يسير بجانبي فقلت في نفسي ، فعلا ولكن ربما هذا مجرد كابوس اتعرض له والافضل أن استيقظ منه . مددت يدي إلى عيني لافركها. كانتا مفتوحتين وتريان . وقتها تأكدت انني يقظان وواع تماما واننا نتعذب فعلا وان ما يحدث ليس حلما او كابوسا . عندها تمنيت لو استطيع أن أنام واحلم .

١٩٧٣



نشيج يشق الصدر

قبلها ، مد يده إلى منامتها ، كان يبتسم ، وكانت العينان تضيئان

– حبيبتي . . . اخلعي ثيابك

تذكر :

« ياحمار . . . اخلع حذاءك »

كتم ألما فاجأه ، وحتى يشاغل نفسه عن نفسه ، اغمض عينيه اللتين كانتا تضيئان واستغرق في قبلة طويلة ، خلف عينيه المغمضتين رأى العصا في يد رفيقه والآمر بالضرب واقف يعطي اوامره :

– اقول لك اخلع بوطك ياحمار

كانت قد نضت عنها ثوبها ، حملها إلى السرير ، كان يحاول أن يبتسم ، وهو يرنو إلى عينيها المضيئتين كانت تراقب وجهه .

– مابك ؟ في الماضي كنت تاتي إلى الاجازة أكثر اشراقا

– لا شيء . . . انا مشتاق لك ياعائشة

ارقدها على السرير الخشبي العتيق المصنوع من اشجار التوت ، رقد إلى جانبها ساكنا وفي السقف رأى رفيقه وبيده العصا وذاك الاخر إلى جانبه يشتمه .

« اضربه . . . اضربه . . . حيوان . . . يستحق مائة فلقة »

كانت مشتاقة اليه ، فمنذ اربعة اشهر لم تره . تزوجها قبل ذهابه إلى الجندية بشهرين .

مدت يدها وطوقته .

– حبيبي علي . . . ما بك ؟

– لا شيء ياحبيبتي . .

كانت يدها قد استلقت على صدره

– علي.. انني مشتاقة اليك . . . اتذكرك كل ليلة . .

لا اريد أن انام وحيدة بعد الآن . . تعال ياحبيبي مد يده إلى صدرها ، فاقتربت منه والتصقت به .

علي مالك ساهم . . انا مشتاقة اليك . .

نهض من استلقائه وجلس . . رنا إلى عينيها السوداوين بعينين اسيانتين .

— علي لماذا تنظر الي هكذا ؟ . . . تعال

حركت ساقيها وعندها رأى نفسه في الكرسي المنزوع الاسفل وقد رفع ساقيه العاريتين نظر إلى قدميها الصغيرتين واللتين طالما قبلهما ، رأى قدميه مرفوعتين إلى الاعلى ومقابلهما يقف رفيقه عابسا متبرما من المهمة المجبر بتنفيذها وقد امسك بيده عصا بينما وقف الآخر محمر الوجه غاضبا .

(ارفع رجليك ياحيوان . . اضربه . . اضربه ، انت تلاعبه . . حمار يستحق)

كانت تنظر اليه بعينين اسيانيتين حنونتين راغبتين .

— علي . . . الست مشتاقاً الي ؟ انا مشتاقة اليك ياحبيبي

« الحمار يعاند . . سأظل اضربك حتى تبوس بوطي »

– علي . . لماذا تتطلع هكذا الى قدمي . . علي انا احبك . . انا مشتاقة لك . . حبيبي

« اضربه . . . اضربه . . . لا تلاعبه »

« انا مشتاق لك يا عائشة مشتاق لصدرك . مشتاق لعينيك ، مشتاق لقدميك يا عائشة »

كانت قد خفضت ساقيها وجلست بجانبه ، ثم طوقت رقبته بيد ، وبالاخرى اخذت تداعب وجهه وشعره

– ماذا بك ياعلي ؟ لقد كتبت لي تقول انك مشتاق وانك تتذكرني كل ليلة . . هكذا تتذكر عروسك اذن ؟

– عائشة . . انني احبك . . انت تعرفين هذا ساحكي لك كل شيء فيما بعد .

استلقى على الفراش ، فاستلقت عائشة بجانبه . كان ينظر إلى اخشاب السقف ، وفي السقف فوقه تماما كان يرى الساحة والجنود المتحلقين والكرسي المنزوع الاسفل وقدميه وقد اشرعتا إلى الاعلى ، والعصا تنهال عليهما ، تمنى لو يستطيع أن يحكي لعائشة عن هذا ، تمنى لو يستطيع أن يضمها اليه بعنف كما كان يفعل في السابق وكما كان

يفكر امس انه سيفعل اليوم عندما ما يصل إلى القرية ، لكنه ومنذ أن مد يده إلى ثوبها ، شعر انه جبان ، وانه ليس رجلا ، وانه لا يستحقها ، وانه ليس اكثر من عبد يجلد في الساحات العامة .

— هل انت تعبان من السفر ؟

— لا عائشة . . احبك يا عائشة . .

لماذا اذن لا . . .

نهض وجلس مرة ثانية ، ادار بصره نحوها ، وضع يده على قدمها اليمنى التي كانت قد ارتفعت

« اعبد هذه القدم يا عائشة »

ساكسر لك اقدامك ياحمار

وبحركة يائسة شال يده عن قدم عائشة ، واسبلها مثل ما اسبل جفنيه ليرى العصا وقدميه المرفوعتين ورفاقه يتفرجون . كان منحنياً فوقها مثل شجرة يابسة فوق نهر يجري

— علي قل ما بك . . . انا عروسك . . لا تخف عني شيئا . . اذا كنت لا تستطيع الان . . . . المهم أن تكون مرتاحا . . انا مشتاقة لك ليس لاجل هذا . . علي . . .

كان قد عاد واستلقى ، واخذ يبحلق إلى السقف الخشبي ساهما . كان يرى العصا وساقيه المرفوعتين ورفيقه الذي اجبر على القيام بهذا العمل ورفاقه الآخرين يتفرجون عابسين خائفين ، اغمض عينيه محاولا ابعاد المشهد ، المشهد نفسه يظهر اكثر وضوحا .

– علي احك كلمة . . . انا احبك . . . قل اي شيء

وضع يده على صدرها فأحس انه يخدعها وانه يسرقها ، وانه يغتصبها وانه ليس رجلا . سحب يده عن صدرها وارقدها لصق جسده العاري . رأى رفيقه يضربه بالعصا على قدميه المرفوعتين ورفاقه يتفرجون وفي هذه المرة رأى عائشة وقد وقفت تتفرج عايه معهم ، رآها تنظر اليه باستخذاء واحتقار .

سأزعل منك ياعلي . . . من بداية زواجنا تخفي علي مشكلاتك .

مرة ثانية تمنى لو يستطيع أن يحكي لعائشة كل شيء أن يصيح أن يشتم ، ان يضرب

علي . . لماذا تفعل هذا . . لماذا تعذبني ؟

احس أن حزنه اكبر منه ، واكبر منها بل واكبر من القرية وانه يتضاءل ويتضاءل حتى انه سيصبح قريبا اصغر من فأر . . ادار ظهره لعائشة ووجهه للحائط الترابي الابيض . واخذ يبكي بكاء مكتوما ما لبث أن تحول إلى نشيج يشق الصدر والقلب .

١٩٧٣



حبيبتي اغلقت النافذة

« قلبق عسكري تركي ، في وسطه هلال ونجمة ، عينان غائرتان في وجه طولاني نحيف ، أنف بارز ، شاربان طويلان ، ومعقوفان ، باقة سترة عسكرية ، نيشان . »

* صورة في البيت *

عندما دخلت الشارع الذي يقع بيتنا فيه ، وقبل ان اكون قد نظرت إلى نافذة جارتي التي احبها — وكانت مفتوحة وقتها — كنت قد انتهيت الى قرارى النهائي سأحطم الصورة ، وليحدث مايحدث لكني ، وعلى باب الغرفة التي علقت الصورة فيها ، تباطأت وارتسم امامي أبي وبيده العصا التي يضربني بها دائماً . حدقت الى الصورة هارباً من منظر أبي وبيده العصا ، ومتأملا التفاصيل :

قلبق عسكري تركي ، في وسطه هلال ونجمة ، عينان غائرتان في وجه طولاني نحيف ، شاربان طويلان ومعقوفان باقة سترة عسكرية ، نيشان . وأسفل الياقة على الجانب

الايمن من اطار الصورة وتحت الزجاج ، ثمة بطاقة معايدة ارسلها السلطان الى جدي ، بينما وضعوا على الجانب الايسر آية قرآنية مكتوبة بيد خطاط تركي شهير ، سمعت والدي اكثر من مرة يفاخر بجمال خطه .

. . . وكالعادة ، بدأت اشعر بالخوف امام الصورة : اذن هذا هو جدي الذي تزوج اربع نساء وحج خمس مرات بعد ان عاد من السفر برلك . هذا الرجل الذي ذهب الى الاناضول مشيا وحارب الكفار في « شنق قلعة » كما يروي والدي ، ثم عاد ومات في بيته منذ زمن بعيد ، ودون ان أراه أبدا . فأنا لااعرف عنه الا صورته والا احاديث أبي عنه ، ولا أعرف لماذا وضعوا صورته مقابل سريري ، كلما استلقيت تلتقي عيوني بعيون جدي فأدس رأسي تحت اللحاف ، لكن الصورة تنفذ من تحته ، كأنها تريد النوم فوقي .

. . . مامر نهار — منذ عام — الا وفكرت بكسر هذه الصورة ، تماما مثلما أفكر — منذ عام — باعطاء رسالة الحب الى جارتي التي احبها . هذه المرة — الآن — سأكسر الصورة ، فأبي غائب . سأقول له عند مايسأل عنها : « لقد تحطم زجاجها مثلما تحطم زجاج نوافذ البيت عندما اخترقت الطائرات جدار الصوت فوق بلدتنا هذا الصباح » .

يجب ان اتخلص من هــذه الصورة التي مازالت تخيفني منذ زمن بعيد . مانمت ليلة الا وجثمت فوقي مثل جبل ، أهلي يقولون لي : انت مقصر كسلان في دروسك ، ترسب في صفك ، لكنهم لايعرفون ان الخوف من الصورة يمنعني من الدراسة . سأكسر الصورة وأقول لابي « ان زجاج الصورة تكسر لان الطائرات . . » لكن امي واخوتي سيقولون ان زجاج النوافذ وحده تكسر . سأقول لابي استيقظت في الصباح فوجدت الصورة مكسورة ، وسأقول : لم أجد الصورة ، ربما تكون اختفت كما اختفى . . كما اختفى . . لاأعرف ماذا سأقول . ابي لن يصدقني ، وسيضربني بالعصا . منذ زمن بعيد وهم يضربونني : ابي وأمي واخوتي ، يضربونني لانهم يقولون انني كسول ، يضربونني عندما أتأخر في شراء الخبز والفرن مزدحم ، يضربونني كلما تقاتلوا بعضهم مع بعض . . يضربونني . .

ربما للمرة الالف أعيد النظر الى الصورة : قلبق عسكري تركي ، في وسطه هلال ونجمة . عينان غائرتان في وجه طولاني نحيف . أنف بارز ، شاربان طويلان ومعقوفان ، ياقة سترة عسكرية . نيشان . صورة قديمة رأيت مثلها في بيوت كثير من رفاقي ، وفي جميع البيوت يخافون هذه

الصورة ، وقد قال لي علي بأنه يفكر مثلي بكسر صورة جده ذات يوم ، وحكى لي ان جده مثل جدي تزوج اكثر من واحدة ، وحج اكثر من مرة أتذكر الآن صورة جد علي انها مثل صورة جدي تماما قلبق عسكري تركي ، في وسطه هلال ونجمة . عينان غائرتان في وجه طولاني نحيف . أنف بارز . شاربان طويلان ومعقوفان . ياقة سترة عسكرية ، نيشان .وفي بيت علي مايزال يوجد سيف جده ، واكثر من مرة قال لي بأنه يفكر بسرقة هذا السيف ورميه في البحر لان أباه يهدده دائما بأنه سيذبحه به اذا خالف اوامره . مرة جاء علي الى بيتنا وقال لي : جدك يشبه جدي تماما : قلبق عسكري تركي في وسطه هلال ونجمة . عينان غائرتان في وجه طولاني نحيف . أنف بارز . شاربان طويلان ومعقوفان ياقة سترة عسكرية . نيشان . فسألته ان كان يخاف جده مثلما أخاف جدي فقال لي بأنه لاينام في الغرفة التي علقوا فيها الصورة مثلي فقلت : « سأتخلص من جدي » وبيني وبين نفسي كنت افكر : « سأعطي جارتي التي أحبها الرسالة » .

وعندما اقتربت من الصورة اكثر ، سمعت صوت خطوات امي آتية من المطبخ . وهي تزعق ، لاأدري على ماذا فتظاهرت ، خائفا بأنني اضع كتبي وأخرج من الغرفة ،

واستجمعت ، متشاغلا ، بصقة القيها خارج فمي . لكن البصاق سال على ذقني — كأنني بصقت على نفسي — مسحت البصقة عن وجهي وأنا على الباب ارفع بصري الى شباك جارتي التي احبها والتي سأعطيها رسالة اعترف فيها بحبي لها. رأيت الجارة تغلق النافذة في وجهي ، ثم تسدل الستارة ، فعدت الى الغرفة متضايقا ، لأرى الصورة تحدق في وجهي : قلبق عسكري تركي في وسطه هلال ونجمة . عينان غائرتان في وجه طولاني ونحيف ، أنف بارز شاربان طويلان ومعقوفان . ياقة سترة عسكرية ، نيشان .

١٩٧٣



غرفة على السطح

— ١ —

دخل دكانا لبيع القهوة ، اشترى مئة غرام قهوة ، وخمسمئة غرام سكر . مر امام بائع صحف ومجلات رأى العدد الجديد من مجلة (الاسبوع العربي) (عائدة تقرأ الاسبوع العربي باستمرار وموعدها الاسبوعي معي ليل كل اثنين يصادف موعدوصول المجلة..مصادفة لطيفة) اشترى المجلة وجريدة النهار والثورة ثم رأى العدد الجديد من مجلة الطليعة ، فاشتراه لنفسه (موضوعات الطليعة ثقيلة) تذكر قول عائدة هذا . مر امام بائع فواكه ، اشترى نصف كيلو تفاحا ، ونصف كيلو عنبا ، واربع موزات (عائدة تحب الفواكه ، ربما يكون هذا من بقايا تربيتها البرجوازية كما يتهمها سليمان دائما) مر امام سمان دخل واشترى قطعة زبدة ومئة غرام لبنة ومئتي غرام جبنا وعلبة (كلينكس) ، ثم تذكر الشاي فاشترى مئة غرام خرج حاملا كيسا كبيرا .

مر امام مكتبة . رأى في الواجهة ديوان شعر جديداً لنزار قباني (عائدة تحب شعر نزار قباني ، سآخذ الديوان الجديد هدية لها على الرغم من ثمنه الغالي ، حتما ستقرأ لي الليلة كل الديوان) دخل المكتبة ، اشترى الديوان (على عادتها ستقف وراء الباب عندما افتحه ، ثم تنقض علي وتعانقني قائلة : لماذا تتأخر ياملعون . . لاأحب ان ابقى في غرفتك وحيدة . . دونك) حيا شخصا يعرفه تابع سيره مفكرا بعائدة والوقت الممتع الذي سيقضيانه معا (ستسألني عن الجبنة فورا : ألم تحضر لي جبنا . . نسيت كعادتك ؟ . سأفاجئها بديوان نزار قباني الجديد . . حتما ستكون مرتدية بنطالها الاخضر . . . اصبحت تعرف ماأحب من ملابسها فترتديه . . ستعلمني الاهتمام بالملابس . . هذه البنت رائعة تستحق شخصا افضل مني ، تترك اهلها وطبقتها وتلتزم بي . . لماذا لايرتاح لها رفاقي واصدقائي ؟ ! .

« – حبك لعائدة المصمودي تعبير عن احلامك البرجوازية .

– لكن ياسليمان الانسان ليس بمولده الطبقي فقط ، بل بموقفه من الطبقة التي ولد فيها . . . بموقفه من حركة المجتمع .

– سهل ان تجد تسويغا لأي تصرف تقوم به . . هذا مايفعله كثيرون هذه الايام »

« حتما عائدة تتساءل الآن لماذا تأخرت . . ستسمر بالتفاح والعنب »

كان قد وصل الى اول الشارع الذي يسكن غرفة تقع على سطح بناية قائمة فيه . تذكر طفولته ، ولعبة الكرة في القرية .

« – انت بعلاقتك مع عائدة المصمودي تخون طبقتك وقريتك . . تخون طفولتنا معا » .

– لماذا انت ياسليمان فج ومتعصب هكذا ؟ ! عائدة ممتازة . . حاول فهمها .

– انني افهمها خيرا منك . . انا اراقبها . . وانت واقع فيها .

– عائدة تخلت عن طبقتها ياسليمان . . انت ترى سلوكها ولطفها معنا .

– هذه لعبة اولاد البرجوازية هذه الايام . . هذا

كمينهم لنا . . انهم يركبون الموجة . . يلبسون موضة الثياب الجديدة .

– انت تفهم الامور بطفولة يسارية .

« انت تقع في وهم ياحسين . . انت تقول انها تخلت عن طبقتها لانك تريدها أن تتخلى عن طبقتها انت . . »

رأى جارته التي كان يغازلها قبل ان يعشق عائدة المصمودي . نظر اليها وابتسم ، انسحبت الجارة من النافذة . تذكر شدة غيرة عائدة عندما حدثها عن جارته . (هل اعطيتها مفتاحا ثانيا لغرفتك ، مثلي ؟ ! هل كانت تأتي اليك مثلي مساء كل اثنين وتبقى معك حتى اليوم الثاني؟ !)

دخل البناية التي يسكن غرفة سطحها . . خفق قلبه (تأخرت ربع ساعة . . كم انا مشتاق اليك ياعائدة ، على الرغم من انني رأيتك هذا الصباح ، سأضمها ساعة كاملة فور دخولي) .

بدأ يصعد السلم (كعادتها ستكون واقفة وراء الباب) صعد السلم بهدوء حتى لاتسمع وقع خطوه فتختبىء خلف الباب . وضع المفتاح في القفل . فتح الباب . دخل مبتسما ومتهيئا لعناق عائدة . على سريره رأى رجلين مسلحين جالسين ينتظران .

— ٢ —

بعد شهر افرجوا عنه . فور خروجه اتصل بعائدة . اختها قالت له بانها ذهبت منذ ساعة ولن تعود الا آخر الليل . قال لاختها قولي لها : (مهى تنتظرك) تذكر يوم اتفق مع عائدة على هذه (الشيفرة) . في الطريق الى البيت كان يفكر بالعذاب الذي مضى ، وكيف سيجد عائدة وكم سيفرحان معا (حتما هي الآن عند سعاد ، ليتني اعرف رقم هاتف سعاد اومنزلها) مر امام بائع صحف ، اشترى صحفا ومجلات كثيرة (ربما تكون عائدة قد اشترت لي كل الصحف والمجلات في غيابي . . سنقضي معا اسبوعا كاملا في غرفتي . ترى ماذا احست عندما جاءت وانتظرتني ثم عرفت بما حدث . كم مرة أتت الى غرفتي في غيابي ؟ !) تذكر رفاقه واصدقاءه وكم سيفرحون عند رؤيته (سوف تحدثني عائدة عن كل ماحدث في غيابي . . سليمان سيفرح كثيرا . . آمل ان آراءه في عائدة قد تحسنت عندما رأى سلوكها في غيابي .

« — عائدة برجوازية وانت تقول عن نفسك انك ضد البرجوازية . . فكيف تحبها ؟ ! انت تصعد سلمها ياحسين»

مرة اخرى سأل نفسه : لماذا لايرتاح اكثر رفاقه لعائدة ؟ ! قال لنفسه هم لايفهمونها مثلما افهمها انا . في الطريق الى غرفته كانت الشوارع والسيارات تبدو له وكأنه يراها للمرة الاولى في حياته (اذا كنت ارى الشوارع والناس هكذا . . فكيف سيكون شعوري عندما أرى عائدة والرفاق والاصدقاء . .) فكر بأهله (ربما عرفوا بما حدث عن طريق سليمان . . وربما حاولوا رؤيتي لكنهم منعوا) مر أمام دكان بائع فواكه . اشترى نصف كيلو تفاحا ونصف كيلو عنبا . قال في نفسه (حتما ستأتي عائدة غدا باكرة . سنفطر معا (اشترى لبنا وجبنا (حتما يوجد شاي في الغرفة . ستغلي عائدة شايها الرائع) مر امام واجهة تعرض البسة (الشتاء قريب وأنا بحاجة لسترة شتائية ،سآتي مع عائدة لاختيار واحدة .)

« ــ لماذا انت غير انيق في ملابسك ياحسين ؟ »

ــ سألبس حسب ذوقك منذ الآن ياعائدة »

بعد تذكره حواره ذاك مع عائدة تذكر حوارا آخر مع سليمان :

« ــ ياحسين انت تختلف عن عائدة في كل شيء . . طبقتك . . سلوكك . . حتى لباسك .

– ياسليمان انت ضد عائدة في كل شيء على الرغم من انها تحبك وتحترمك .

– سأقول لك بصراحة . . سأصارحك حقيقة نفسك . . . انت لماذا تركت عائشة ؟ ! أما كنت تحبها عندما كنا معا في المدرسة الثانوية ؟ ! لماذا ؟ ! لان عائشة لم تستطع ان تدخل الجامعة مثل ابنة المصمودي ؟ ! لم تستطع ان تحصل على بعثة مثلك ؟

– اذن عائشة هي التي تحرضك ضدي . . وضد عائدة ؟ !

– أبدا . . منذ عامين لم أر عائشة . . انت تحرضني ضدك »

تابع طريقه وقد عاد يفكر بالملابس (ذوقك رديء في اختيار الملابس ياحسين . . معها حق . . على الانسان ان يعتني بلباسه وشكله . . . ليست الثورية بالملابس الرديئة سليمان يضخم الموضوع) . في الطريق رأى شخصاً يعرفه معرفة غير وثيقة . سلم عليه بحب وشعور عاطفي وتوقع ان يسأله عن سبب غيابه ، لكن الشخص لم يسأل شيئاً . قال في نفسه (هذا افضل . يبدو انه لم يعرف بما حدث) وصل

الشارع الذي تقع غرفته على سطح احدى بناياته . . أحس ان هذا الشارع أرحب من البحر ! . تذكر قول سليمان .

« – انت الآن طالب فقير تسكن غرفة متواضعة في شارع متواضع . . وعندما تنهي دراستك وتصبح طبيبا وتتزوج الطبيبة عائدة المصمودي سيعطيكما ابوها شقة في عمارته في ابي رمانة ثم تفتحان عيادة ، وربما مستشفى هناك . طريق سار فيها امثالك . . أشكر الظروف التي اعطتك بعثة لدراسة الطب بينما أخوك مازال فلاحا . . هل ستسمح لي في المستقبل بدخول بيتك ياحضرة الطبيب ؟ .. »

ابتسم بينه وبين نفسه ، احس بالفة وحب لسليمان (سخريته مريرة) تذكر اهله وقريته . أحس بحب غامر لكل بقعة في القرية ، وفي هذا الشارع المتواضع . على باب البناية التي يسكنها رأى سيارة فاخرة (لمن هذه ؟ ! هذه اول مرة اراها هنا) سلم على جاره صاحب دكان لبيع حلويات والعاب الاطفال ، فرد عليه الجار بترحيب حار ، وسأله عن غيابه الطويل متوقعا انه كان عند اهله في القرية (هو الآخر لم يعرف بما حدث . . هذا أفضل) .

دخل باب البناية أحس فرحاً ممزوجاً بأسى عميق ولهفة

مشتاقة (ترى كم مرة أتت عائدة الى هذه الغرفة في غيابي)
اخرج المفتاح وضعه في القفل . احس وكأنه الآن فقط خرج
من السجن (انني مشتاق لهذه الغرفة كثيرا (فتح الباب
رأى على سريره عائدة المصمودي تستلقي عارية مع شاب
لم يره قبلا ، لكنه عرف فيما بعد انه صاحب السيارة
الفاخرة التي رآها تقف على باب البيت .

١٩٧٤

• • •

العودة الى البيت

— ١ —

ازاح ستارة النافذة . كانت الشمس مشرقة . نظر الى ساعته . كانت العاشرة « هاهي الشمس ، بعد اسبوع مطر » قام من فراشه . غسل وجهه . حلق ذقنه . غلى فنجان قهوة . شربه . « سأذهب الى الحديقة العامة لاستمتع بالشمس وصل الحديقة العامة . تمشى . قعد على احد المقاعد . قام وسار . قعد على مقعد آخر يراقب الناس خاصة . « نهار الجمعة تزدحم الحديقة العامة » قام وسار . شرب فنجان قهوة من بائع قهوة متجول تابع سيره « لو كانت معي امرأة في هذا النهار المشمس » . حدق الى امرأة تعبر وحيدة « هذه المرأة مثلا » سار وراءها . فكر في أن يكلمها « اصبحت افكر كالمراهقين » عاد وقعد على مقعد منفرد وحيدا . اخذ يتذكر الماضي وفتاة عرض عليها ذات يوم الزواج لكنها رفضته . مرت فتاة وشاب متخاصرين . نظر اليهما ، ثم نظر الى الارض ، ثم رفع نظره وارسله عبر اشجار الحديقة العامة « هذه الحديقة جميلة ، والشمس

رائعة هذا النهار » . اخرج علبة سجائره ودخن سيجارة ،
« لو تكون هناك امرأة تقعد معي على هذا المقعد المنعزل »
وبحركة عفوية نظر الى يمينه حيث رأى المكان الفارغ
والذي يمكن لامرأة ان تملأه . اطال النظر الى المكان
الفارغ « رائع ان يأتي رجل مع امرأة الى الحديقة العامة
والنهار مشمس بعد مطر اسبوع » عاد وارسل بصره عبر
اشجار الحديقة . رأى سيقان الشجر العاري . تذكر بيت
شعر قديم :

والمرو تحسبه العيون غوانيا

قد شمرت عن سوقها اثوابها

بعد ان ردد بيت الشعر قال في نفسه « لابد ان الصنوبري
كان يبحث مثلي . ، عن امرأة في حديقة عامة او غابة » .
عاد ونظر الى يمينه حيث المكان الفارغ الذي تستطيع امرأة
ان تملأه . ادام النظر الى المكان الفارغ . فجأة رأى خيالا
احمر . اتخذ الخيال شكل معطف احمر . اعلى المعطف
نبت رأس ذو شعر اسود فاحم وكان هناك وجه اسمر
يبتسم . بدأ له المكان الفارغ مملوءا بحضور رائع « يجب ان
اتحرك وإلا . . . » قام ومشى .

مشى في الحديقة العامة . احس بجوع . نظر الى ساعته .
كانت الثانية والنصف « يجب ان اذهب لاتغدى » سار باتجاه
المطعم الذي يتغدى فيه كل يوم « لو كان هناك امرأة
اتغدى معها في المطعم او في البيت » وصل الى المطعم . تناول
طعامه ، وبعد ان انتهى.ذهب الى المقهى الذي يذهب اليه
كل يوم بعد كل غداء . كان المقهى شبه فارغ من الناس .
اختار طاولة في زاوية المقهى . طلب فنجان قهوة . شربه .
احس بخدر لذيذ ونعاس خفيف . تذكر نومه مرة على مقعد
في الحديقة العامة ، ثم اغفاءه مرة ثانية في هذا المقهى بالذات
« اصبحت اغفو على المقاعد والكراسي كالعجوز مع انني لم
اتجاوز الاربعين » شعر بالنعاس يسرقه وبالخدر اللذيذ
يسري في عروقه . رأى الحي الفقير الذي تربى فيه . رأى
والده الذي توفي منذ عشرين عاما . رأى اخوته اللواتي
اعالهن الى ان تزوجن ونسينه مع ازواجهن . رأى وجوها
متعددة لاصدقاء صادفهم يوماً ثم نسوه . رأى مدنا وقرى
علم فيها خلال سنيه العشرين في التعليم . . رأى وجوه
بغايا ضاجعهن وكان يظن نفسه قد نسيهن . . رأى . .
رأى . . رأى. . رأى خيالا احمر ، اتخذ الخيال شكل

معطف احمر ، اعلى المعطف نبت رأس ذو شعر اسود فاحم وكان هناك وجه اسمر يبتسم . وكانت هناك يد تلامسه وتقول له : « قم معي الى البيت سأنقذك من المقهى » انتبه مجفلا . طلب فنجان قهوة ثانيا .

– ٣ –

شرب فنجان قهوة ثالثا . نظر الى ساعته كانت قد صارت السابعة « يجب ان اذهب » قام . سار في الشوارع ، « الى اين اذهب » ، سأل نفسه « بدأت احس بالجوع . سآكل سندويشه » سار باتجاه السليمانية « النساء كثيرات في السليمانية » سار الى آخر الشارع الطويل . دخل محلا لبيع السندويش وتناول المشروبات على الواقف « رائعة هذه الاماكن في حلب » طلب سندويشة سجق وكأس عرق . احس شهية . طلب سندويشة وكأس عرق ثانية . شرب كأسا ثالثة . رائعة . خامسة . خرج من المشرب . سار يتسكع في ليل بارد . تذكر تلاميذه والدرس الذي سيعطيه لهم غدا . رأى كوة لبيع الصحف والمجلات . اشترى جريدة سار باتجاه المقهى . شرب فنجان قهوة . قرأ الجريدة . وضعها على الطاولة ونظر في المقهى . كان المقهى قد اصبح شبه خال . نظر الى ساعته . كانت قد

اصبحت الحادية عشرة والنصف « يجب ان اعود الى البيت
قام وخرج تاركا الجريدة على الطاولة . سار باتجاه البيت .
وصل الشارع الذي يسكن شقة صغيرة فيه . نظر الى نافذة
غرفته المظلمة « لو كان هناك امرأة تنتظرني » . كانت
النافذة مضاءة . وقف مقابل نافذته وكأنه غريب يبحث عن
عنوان . اطال النظر الى نافذته . رأى النور مضاء . رأى –
خلف النافذة – خيالا احمر . اتخذ الخيال شكل معطف
احمر . اعلى المعطف نبت رأس ذو شعر اسود فاحم ،
وكان هناك وجه اسمر يبتسم ويد تلوح . نفض رأسه
ودخل باب العمارة ، مكررا بينه وبين نفسه « انني تعبان
ويجب ان انام » . دخل بيته احس ببرودة شديدة . اشعل
الضوء . خلع ثيابه . ارتدى منامته ثم اندس في فراشه الذي
كان كما تركه في الصباح واستغرق في نوم عميق وحلم
تعرفونه .

١٩٧٤



النخلة المضيئة

« كان هناك ليل

وكان الشجر يضيء

. . . إنني أحمل وردة .

. . . .

إنني أحمل وردة . وأغني مع العمال والأطفال في الطرقات :

فليتمجد الشجر المضيء .

. . . .

ليتمجد الشجر المضيء

تعالوا جميعاً

تعالوا معاً

تعالوا في ليالي الشتاء الباردة

نشرب الشاي السعيد .

— المعلم الضائع في قصة النخلة المضيئة

* * *

كان يمشي وكلما أحس قدميه تتسلقان مرتفعاً يقول لنفسه : « لقد ضعت عن هذا الكثيب ، قد أطل على ضوء ، وربما أسمع كلباً ينبح . » لكنه كان أسير الليل والصحراء والهواجس : «هب إني صادفت ذئباً ، سيمزقني . . هب إني صادفت إنساناً ، سيسرق مامعي . . ربما يقتلني . . . » في ذاكرته بدأت تستيقظ أحاديث سمعها في طفولته عن الغجرالذين يخطفونالأطفال والبدو الذين يسلبون المسافرين والضائعين في الصحراء .

كان قد أمضى السهرة عند زميل له يعلم في قرية مجاورة للقرية التي يعلم هو فيها ، وكانت المرة الرابعة التي يقضي فيها السهرة في تلك القرية ، في الماضي كان ضوء القمر ينير له الطريق فلا يضيعه ، وفي هذه الليلة المظلمة أضاع الطريق ، فأضاع القرية التي كان عائداً إليها . بعد حوالي نصف ساعة مسير ، لم يصل القرية ، ولم ير ضوءاً خلاله ، أحس كمن وقع في كمين ، أنه تاه الطريق ، وإنه لايستطيع العودة ، والوقوف في المكان بدا له فكرة مخيفة أكثر من الاستمرار في المسير ، فاستمر يسير ، وكأنه لايسير فاتحاً عينيه ، لكن دون أن يرى ،

مرهفاً أذنه دون أن يسمع حتّى الريح ، وشيئاً فشيئاً ، وبغموض ينجلي ببطء . بدأت تستيقظ في ذاكرته أحاديث كان قد نسيها ، ولم يتذكر أكثرها – بعد أن حدثت – إلا في هذه الليلة ، وهذا المسير :

« كانت الأم ذاهبة لزيارة أختها التي تسكن في المهاجرين . بكى لأن أمه لم تأخذه معها ، ومن على الباب – وكان في الخامسة تقريباً – هددها بأنه سيتبعها ، فقالت له : سيسرقك القرباط في الطريق ، ولن أمنعهم من ذلك ».

أسود كالخوف كان الليل ، وكالخيبة كانت الصحراء مظلمة ، والذاكرة صارت زنزانة تتكوم فيها ، كالجثث التّي لم تفارقها بقايا الروح بعد ، الآمال وصور الماضي وأحاديث متفرقة مع الأصدقاء :

« . . الانسان ؟ ! ماالانسان ؟ قل لي ، الانسان ذئب . الانسان . . . البدو الذين يضرب المثل بكرمهم ، يكرمونك ، وبعد أن تترك خيمة واحدهم فإنه يغتالك ويسلبك ، ويترك جثتك للذئاب والكلاب والطيور . . .»

أحس وكأن الدائرة تضيق حوله وهو يتذكر كلمات

زميله أمين ، والتي سمعها منذ ساعتين فقط عندما كانا يشربان الشاي ويتحدثان عن حالهما :

« . . لماذا نفونا لنعلم هؤلاء البدو الجهال . . لهم مئــات السنين دون أن يتعلموا ، لغتهم لاأفهمها ، لي شهران هنا وحتى الآن لم أتبادل الكلام مع واحدمنهم . . إنهم غلاظ لايعرفون إلا الفلاحة والرعي والتهريب . .»

لاشيء إلا السواد . نقطة سوداء خائفة تسيل فوق لوح فحم حجري :

« . . . منذ أسبوع وجد راعيان من هذه القرية اللعينة جثة رجل وقد أصابته رصاصات في صدره ورأسه . لم يفعلا شيئاً أكثر من تفتيش جثته . . تصور ، . لم يجدا معه قرشاً واحداً ، حتى ولا ساعة . . ولا خاتماً » .

ليس الكون قبة ، وليس الكون مسطحاً ، ليس ماء ، وليس تراباً ، إنه السواد والخوف والنقط السوداء لاتظهر على الصفحة السوداء . إنها الظلمة :

« كانت أمه ــ وكان في حوالي السادسة ــ تمسك يده ، وتحاول العبور به في شارع الصالحية من رصيف

الى آخر. تملص من يدهـا وهرب الى الرصيف الآخر ، وعندما عادت وأمسكت يده قالت له مشيرة إلى شرطي المرور الذي كان يقف تحت واقية شمس ومطر بيضاء انظر إلى هذا الشرطي . . إذا فعلتها مرة ثانية ، سأعطيك له ليأخذك إلى السجن » .

هل يقعد في مكانه منتظراً الصباح ؟ كان خائفاً ، قلقاً لايستقر ، وكلما مال إلى الاقتناع بفكرة القعود انتظاراً للصباح يقول لنفسه : « الأفضل أن أسير ، ولو مسافة قصيرة ، فربما أرى ضوءاً » . لكن مسيره والظلمة كانا كمن يحاول ملء برميل بلا قعر « قد يكون مصيري كالرجل الذي حدثني عنه أمين . . جثة مسلوبة ملقاة في البرية تنهشها الذئاب والكلاب » .

« . . انظر إلى هذا الكلب . . إذا خالفتني بعد اليوم . . سأترك هذا الكلب يعضك » . أخرج ولاعته وأشعل سيجارة ، وربما كانت المرة العاشرة بعد أن شعر أنه تاه ، قرب لهب الولاعة من ساعته فرأى أنها الواحدة . ضوء لهب الولاعة ذكره بالأضواء التي كان يطيل النظر إليها من قرب قبة السيار في قاسيون محاولاً تحديد ضوء بيته بينها وأضواء المعالم المهمة في دمشق « . . هذه الجمارك ،

المدينة الجامعية ، الجامعة ، الجامع الأموي » . كان جالساً حول شيخ في الجامع الأموي ، كان الوقت ليلاً رمضانياً وثريات الجامع الأموي تتدلى مشعة نورها وكان الشيخ يتكلم : سوف يعذب الله المخطئين ومن ضلوا سواء السبيل وتاهوا في صحراء الجهالة وليل الكفر ، سوف تحرقهم النار ، وكلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً ، حتى في قبورهم وقبل يوم الحساب سوف تأكل الوحوش والجرذان لحومهم ، فلا تأمنوا الكافرين والفاسقين ، ومن يضلونكم سواء السبيل ، إنهم رفقة السوء، إياكم . . »

وقف ونظر حواليه : لاشيء إلا الظلمة . الظلمة حواليه ، والظلمة في نفسه ، وماعاد يدري : هل يسير في صحراء أو يسير في غابة ، أم هو في بحر . . إنه في الظلمة والخوف « هذه الحياة صحراء ، والانسان وحيد في هذي الصحراء ، ليس للانسان أحد إلا نفسه ، وعليه أن أن يقطع صحراء الحياة ، وحيداً ، حزيناً ، إلى صحراء الموت . الانسان وحيد ومحاصر وغريب حتى عن ذاته ، فكيف عن الناس ؟ » .

وراح يتذكر أين قرأ أصول هذه الأفكار ، لكن الذاكرة كانت دوامة :

« في مقعد واحد كان مع أمين ، وكان المعلم يشرح درساً ، والعصا في يده التفت إلى أمين يقول له كلمة ، فانتبه المعلم : زياد تعال إلى هنا وانهالت ضربات قوية على يد صغيرة ، وقتها بكى كثيراً ، لقد كان المعلم يضربهم دائماً ويخيفهم حتى بشكله الضخم و . . » .

فجأة لمح ضوءاً ، وبمقدار شعوره بالفرح كان يشعر بالخوف ، ربما كانوا مهربين أو قطاع طرق أو أناساً لاأمان لهم ، لكنه سار باتجاه الضوء ، وهو يحاول الوصول إلى قرار نهائي : هل يبقى على مقربة من الضوء بانتظار الصباح أم يذهب إليه ويرى الناس الموجودين ويسألهم عن الطريق ؟

. . . وصل الضوء فتبين من خلاله بضع نخلات تحتها ثلاث خيمات وجرافتان وسيارات ، بل ميزت قدماه اختلافاً في الأرض التي كان يسير عليها ، فعرف أنهم عمال ورشة فتح طريق جديدة إلى إحدى قرى هذه المنطقة .

« قف » صاح به الحارس « من أنت » ؟

ـ ضائع . . ضائع . . معلم في الغسانية . . أين

طريقها ؟

ــ تقدم . . تعال . .

بعد حديث قصير أدخله الحارس خيمة فيها ثلاثة رجال نائمين ، أيقظهم صوت « الطباخ » الذي بدأ الحارس يشعله ليعد للمعلم الضائع شاياً ، كانت الشاي تدخل جوف المعلم الضائع ، بينما تدخل سمعه كلمات العامل الذي استيقظ على جلبة اعداد الشاي :

ــ « : : ذاهب إلى الغسانية . . أيها المعلم . . لقد ابتعدت عن قريتك كثيراً . . تعال اقض الليل عندنا وغداً نرشدك إلى الطريق . . نوصلك إلى قريتك التي أضلك الليل والصحراء إياه . . محمود . . صب له كأس شاي أخرى . . تفضل . . اشرب » .

١٩٧٥

● ● ●

المصعد والبحر

« في طفولتنا . .

— نهى وسليمان وليلى وأنا —

كنا نركض وراء الأمواج ،

والعصافير الدورية التي تهرب

. . ومن يومها تعاقبت الفصول :

ماتت ليلى ، تصادقت مع هند

ذهبت إلى العسكرية ، أحببت

سميرة . .

تحت الجسور جرت مياه صافية وأخرى عكرة .

لكننا — سليمان وسميرة وأنا —

وهاقد رست أشرعتنا في مرافئ العمال

مازلنا نركض وراء الأمواج والعصافير

وراء المستقبل والفرح ورغيف الخبز .

وراء غرفة نسكنها ، أو نخبئ
فيها
أسلحتنا وكتبنا ،
نخبئ أحلامنا .

• محمود عبد اللطيف – العامل في قصة المصعد والبحر .

❋ ❋

ضغطت نهى الزر الكهربائي ، فأسرع المصعد ملبياً ، كخادم ذليل اعتادت نهى أن تأمره ، فاعتاد أن يطيع . فتحت نهى باب المصعد . دخلت ووراءها دخل محمود عبد اللطيف حيران ومرتبكاً . كان يحاول أن يداري ارتباكه بالنظر إلى أرض المصعد تارة ، إلى جدار المصعد تارة أخرى « مصاعد شندلر الكهربائية » شاغل نفسه بقراءة لوحة نحاسية على جدار المصعد .

وقف المصعد . خرجت نهى ووراءها خرج محمود . فتحت نهى باب البيت . دخلت ، ووراءها دخل محمود إلى قاعة الاستقبال مباشرة ،وكان مايزال واضعاً يده في جيبه.

– تفضل .

قالت نهى وهي تشير إلى « كنباية » فامتثل محمود ، وقعد في الكنباية بينما يداه ماتزالان في جيبه ، لكن

وجهه الوسيم بدأ يكتسي حمرة خفيفة بتأثير الارتباك .

– ستأتي ماما لتسلم عليك . . من زمن طويل لم تره كذلك .

. . وقبل أن يستعيد في ذاكرته وجه « ماما » كما اختزنه منذ الطفولة كانت أم علي « خديجة » قد دخلت .

– أهلاً وسهلاً . . أهلاً وسهلاً ياابني .

بعد أن سلمت الماما ، عاد محمود عبد اللطيف يتلملم في المقعد الفاخر ، بينما عادت يداه إلى جيبه ، لكن قلبه بدأ يتواثب مثل دوري في قفص ، وهو يفكر :

« هذه هي أم علي خديجة ؟ ! ماكنت أتوقع أن تكون رسمية معي هكذا . . كنت أظنها ستسلم علي بالاحضان كما كانت تفعل ، كنت أظن. . . . » .

– ياهلا وسهلا . . كيف أملك . . نهى قالت لي : احزري من في البيت . . ظننت أحد رفاقها في الجامعة .

ثم وبعد أن نظرت إلى ملابس محمود قالت :

– ماشاء الله . . أصبحت رجلاً . . في العسكرية . . الأولاد يكبرون هذه الأيام بسرعة . . أين عسكريتك . .

حتماً على الجبهة – كل العساكر على الجبهة . . ماذا تشتغل خارج العسكرية ؟ .

– عامل في المرفأ

– آه . . صار فيه مرفأ كبير في طرطوس بعد أن تركناها . . أبو علي قال . . . .

– سيدتي . . الهاتف يرن ، وهم يطلبونك . .

وذهبت السيدة ترد على الهاتف ، لتعود الخادم بعد قليل وتقول :

– ست نهى . . يريدونك كذلك على الهاتف . .

ذهبت الست نهى إلى الهاتف فبقي محمود عبد اللطيف وحيداً نظر حواليه في قاعة الاستقبال الفاخرة .

كان هناك طقم كنابات فاخرة « كنا طفلين نلعب على البحر » وكان هناك ثريتان فاخرتان » كنا جيران وكانت أم علي تقول : نهى لمحمود » وكان هناك سجادة فاخرة ، بطول الصالون الكبير « كم بكت أم علي يوم نقلوا زوجها إلى دمشق » على الحائط كان هناك لوحات زيتية تدل على ذوق رديء « في البداية كانوا يزورونا في الصيف والأعياد ،

وبعد أن ترك الوالد الوظيفة واشتغل عند متعهد بناء ثم صار متعهداً نسونا » من بين اللوحات توقفت عينا محمود عند لوحة بإطار فاخر جداً لبحر هائج وفوقه نورسان طائران . مرتبكاً قام ومشى فوق السجادة « لم يكن عندهم خادمة . كانوا يسكنون مثلنا في غرفة واحدة كيف صعدوا بهذه السرعة » . عاد وقعد مخافة أن يرتطم بأحد المزهريات أو الطاولات الصغيرة . برقت في ذهنه اللوحة النحاسية التي قرأها في المصعد « مصاعد شندلر الكهربائية » تلفت حواليه « ألا يذكرون الماضي ياترى ؟ » أعاد النظر إلى لوحة البحر الهائج والنورسين الطائرين . عادت نهى .

– آسفة محمود . . تأخرت . . تعرف ! ! لقد عرفتك فور رؤية وجهك على الرغم من أننا لم نلتق منذ زمن بعيد . . هل تذكر سباحتنا في البحر . . في الصيف أنا مشتركة في مسبح السريانا . . كل يوم الساعة الرابعة . . ماذا حدث لرفاقنا الآخرين . . صديقي مروان . .

وقبل أن تكمل عبارتها كانت الخادم قد دخلت لتقول :

– ست نهى . . يريدونك على الهاتف .

مسرعة قامت ، بينما كانت تنظر إلى ساعة يدها ،

وتركت محمود عبد اللطيف وحيداً يدور بنظره متأملاً هذا الصالون الفاخر ويقارن بينه وبين الغرفة الصغيرة التي كانوا يسكنونها عندما كانوا جيرانهم ، وعندما رأى أنابيب التدفئة المركزية ، تذكر « كانون التمز » أعاد النظر إلى لوحة البحر الهائج والنورسين الطائرين فتذكر البحر الذي كان يلعب على شاطئه مع سليمان ونهى وليلى وأحمد ، وتذكر أن أحمد كان يقول « حرام أكل لحم النوارس » وتذكر أن نهى كانت تقول « عندما أكبر سأسبح حتى أرواد » تذكر أن سليمان في السجن ، وأن ليلى ماتت ، وأن الحياة تمضي بسرعة أكثر مما يشعر بعض الناس . تذكر اللوحة النحاسية في المصعد « مصاعد شندلر الكهربائية » بدت له لوحة البحر الهائج والنورسين الطائرين موجعة ومزيفة وغريبة ، نظر إلى مركب شراعي صغير موضوع في الزاوية ، اقترب منه قرأ على بطاقة ملصقة عليه « حسين عبد الجليل – صناعة أرواد » . .

« . . عادت نهى ، وفي دخولها كانت تنظر إلى ساعتها ، وبحركة تلقائية نظر محمود عبد اللطيف إلى ساعته ، وكأن أعماقه ، فهمت ، وبالتأكيد أن نهى تواعدت وعداً ما على الهاتف وأن عليه أن يرحل ، لأن وقت الموعد قريب ،

وقريب جداً ودون تفكير قال – بخاطرك .

– ابق . . ابق . .

– لا . . لا . . شكراً . . يجب أن أعود إلى قطنا هذه الليلة .

– ابق لم تشرب الشاي . . لم نشرب شيئاً . .

– شكراً . . م م . .

وتدافعت بقية الكلمات تتدحرج مع قدميه على السلم حتى وصل إلى الشارع الذي صادف نهى فيه . سار باتجاه مقهى ليشرب كأس شاي يبل الريق ، وعندما رشف أول رشفة من فنجان الشاي ، أحس بالسلام الداخلي ولمعت في ذهنه لوحة المصعد النحاسية « مصاعد شندلر الكهربائية » . .

١٩٧٦

● ● ●

الحلم والنهر

« في تلك الأيام الغابرة
– أقصد أيام شبابي –
كنت كما يجب على المرء أن يكون
في هذه الأيام :
مستثاراً دائماً ، وشتاماً ،
أتكلم وأبصق كثيراً ،
لكن الأيام
– وها وقد جاوزت الأربعين –
علمتني كثيراً
علمتني الحكمة
علمتني أن أميز الليل في النهار
العدو في ابتسامة الصديق
الحقيقة في الحلم .

علمتني كيف استثار واشتم جيداً
كيف أتكلم وأبصق أكثر

هذه الأيام ، علمتني الحكمة
علمتني . . .
علمتني كثيراً
ففيها رأيت كيف يضرب انسان
في عرض الشارع » .

– الحالم في قصة الحلم والنهر –

✽ ✽

١ – رجل كان في طريقه إلى عمله فرأى المشهد التالي :

توقفت سيارة . نزل منها رجال مسلحون . أمسك أحدهم الباب مفتوحاً . تقدم الآخرون من رجل كان يسير في الشارع ، قال أحد المسلحين وهو يضرب الرجل :

– ياابن الكلب. من شهر ونحن نبحث عنك .

حاول الرجل التخلص والهرب . ضربوه . وضعوه في السيارة . كان بعض الناس قد تجمهر ، ومنهم الرجل الذي نروي عنه ماحدث وما رأى ، صرخ المسلحون في

الناس الذين تجمهروا ، والرجل الذي رأى وروى هذه الحادثة كان نصيبه دفعة في الصدر .

غادر هذا الرجل المكان ، بعد أن غادرته سيارة المسلحين ، وهو يتحسس صدره الذي امتلأ بشعور هو مزيج من الغضب واليأس والخوف واحتقار النفس ، لأنه لم يفعل شيئاً لأجل الرجل ، لم يدفع من دفعه .

٢ — حلم للرجل الذي يفكر بما يرى ، وبما يحدث للآخرين وله :

على ضفة النهر كان هناك حشد قوي ، وكان تيار النهر قوياً . كان الناس في عيد: شباب ، فتيات ، رجال ، نساء ، أطفال ، شيوخ ، عرب ، أجانب . كان الناس يقبلون بعضهم ، ويتبادلون المأكولات والأحاديث والشاي والسجائر . كان هناك رقص وموسيقى وملابس ملونة وبالونات ومراجيح أطفال وألعاب كبار و . . . و . .

وفجأة ، أي كما يحدث عادة في الحياة والقصص والأحلام ، حدثت الأمور التالية : انفصل شاب عن فتاة يقبلها . توقفت الموسيقى . أمسك طفل كرة كان يهم برميها . رفع عجوز عينه عن كتاب مصور . أعادت

امرأة إلى الصحن لقمة كانت تهم بابتلاعها . وبدأ الحشد كله مصوباً نظره صوب النهر .

كان هناك طفل يغرق .

ألقى شاب نفسه في النهر محاولاً انقاذ الطفل .

ألقت الفتاة نفسها في النهر محاولة انقاذ الطفل .

ألقى رجل متوسط العمر نفسه في النهر محاولاً انقاذ الطفل .

لكن التيار كان أقوى .

بدأ الشاب يصرخ . بدأت الفتاة تصرخ ، بدأ الرجل يصرخ ،وكان صراخهم لصراخ الطفل الذي كان يغرق.

ألقى رجل نفسه في النهر .

ألقت امرأة نفسها في النهر .

ألقت طفلة نفسها في النهر الذي صار بحراً .

ألقى شيخ نفسه في النهر ، ألقى شاب نفسه في النهر ، ألقت شابة نفسها في النهر ، ألقى طفل نفسه في النهر ، قفز كلب إلى النهر . قفز حصان إلى النهر ،وكل من ألقى نفسه في النهر أخذ يصرخ ، والصراخ تحول إلى بكاء ،

والبكاء إلى عويل ، والعيد تحول إلى جهنم ، وبدأ الهرب :

رجل غل في الغابة ، فتبعته زوجته ، وتبعها أطفالها ، وتبعتهم عائلة أخرى ، وأخرى ، وأخرى ، أحصنة وكلاب وسيارات وقطط وأطفال ورجال ونساء بدأوا يركضون باتجاه الغابة وهم يعولون ويبكون ويصدرون أصواتاً ، بينما تابع رجال ونساء وأحصنة وأرانب أخرى القاء نفسها في النهر ، تابعين من وما سبقهم ،مع أنهم كانوا يرون ما حدث لسابقيهم .

حاول الحالم السير باتجاه النهر ، توقف ، سار ، توقف ، سار ، وصل حافة النهر ، توقف ، نظر إلى التيار ، ميزت عيناه الطفل الذي كان أول من وقع في النهر ، سمع أصوات نـداء وغضب ، مد قدمه باتجاه التيار ، استيقظ .

١٩٧٦

❁

تلك المدينة ... تلك البلاد

نحو النور ،

وحتى نحو المشنقة ،

أحببتك يابلاداً ، تدرج كالعصافير .

يا أمرأتي :

زوجتي أو أمي

أو البحر الذي أخبئه

في جيب قميصي العلوي ،

. . . . وفي ذاكرتي

• عامل من تلك البلاد

• • •

آخر كل ليل ، كنت أعود من عملي الذي يبدأ الرابعة بعد الظهر ، وينتهي منتصف الليل ، وقتها كنت اشتغل في معمل نسيج ، وكنت أسكن ملحقاً ، يتألف

من غرفة وتوابعها ، على سطح بناية من خمسة طوابق .
كان ملحقي يواجه بنايات وبيوتاً كثيرة ، فكنت أرى كثيراً من الجيران أو من الحيوات الداخلية للبيوت ، وأواخر الليل خاصة .رأيت أموراً كثيرة : رأيت نسوة يتعرين ويتفرجن على أجسادهن في المرايا . رأيت أخاً يداعب أخته الصغيرة . رأيت فتاة ، عرفت فيما بعد أنها مدرسة تاريخ — تمارس . . . . كل ليلة تقريباً . رأيت رجلا يضرب زوجته بقسوة ، ثم يراضيها ، وينام معها ، وبعدها يعود لضربها . رأيت شاباً يغازل جارته تحت سلم مدخل البناية ، وبعد ساعة ، رأيته يغازل جارة ثانية ، رأيت بضاعة مهربة تدخل إلى أحد البيوت المقابلة . رأيت رجالا يلبسون ثياباً مدنية يسوقون رجلا مكبلا إلى سيارة مغلقة . رأيت الشرطة تضبط منزل دعارة في البناية التي أسكنها . رأيت . . . رأيت . . رأيت . . رأيت أمور عجيبة كثيرة ما كنت أظنها تحدث في مدينتنا ، فما بالكم في حي واحد منها ؟

« نسيت أن أقول أنني ، رأيت ، مرة ، زوجين سعيدين يمارسان الحب كحمامتين اليفتين » رأيت أموراً كثيرة . . . لا أذكر — الآن — إلا القليل منها ، لكن الذي لم يستطع الزمن أن ينسيني إياه ، كان صوتاً :

كنت أصل الغرفة التي أسكنها ، منتصف الليل ، وبينما أخلع ثيابي ، وأغلي فنجان زوفة ، ثم أستلقي في الفراش بادئاً التفكير باحداث الامس ، وما عليّ عمله غداً ، تكون الساعة – وأنا أدخن سيجارة ، قد جاوزت منتصف الليل بنصف ساعة . . . ووقتها كنت أسمع ذاك الصوت ، فعبر كوة غرفتي الصغيرة ، كانت تأتيني من كوة غرفة سطح أخرى – لعلها لطالب ، لا أعرف – في البناية التي على يمين البناية التي أسكن ملحقها ، أصوات... أصوات موسيقى . . . ماذا أقول عنها ؟ إنها موسيقى رائعة ، هادئة ، وناعمة ، ومريحة للاعصاب . . وعلى الرغم من أني لا أفهم في هذا النوع من الموسيقى ، فقد كنت أحس أني أفهم هذه الموسيقى ، وكل ليل كنت اسمعها ، وأحسها : تلك المنبعثة من كوة ضيقة إلى كوتي الضيقة ، وكانها نداء تواصل ، ومشاركة لي في وحدتي ، وغربتي الأسية . . . وغالباً كنت أركع على فراشي ، وأمرر رأسي من الكوة فوقه – هذه الكوة التي رأيت منها أكثر المشاهد التي ذكرت – وأبقى راكعاً، مخرجاً رأسي ، ناسيا الليل والتعب ونفسي ، استمع إلى موسيقى هذا الانسان المنبعثة من غرفته المطفأة الضوء ، إلى غرفتي المطفأة الضوء ، وبعد أن تسكت الموسيقى

أسحب رأسي من الكوة ، وأستلقي في فراشي لانام ، أسيان وراضياً ، وشاعراً بإلفه ، وحنين للقرية والحقول التي تربيت فيها ، والاصدقاء الذين تشردوا في هذه الحياة .

استمر الحال هكذا أكثر من عام ، ولم أر هذا الانسان مطلقاً ، لكنني ، وها قد مضت أعوام خمسة على تركي معمل النسيج ، وعودتي للعمل في القرية بعد وفاة أمي ، مازلت ، أواخر الليل ، وبعد عودتي من السهر في القرية ، وبعد أن أغلي فنجان زوقة ، ثم أستلقي ، بادئاً التفكير بأحداث النهار الذي مضى ، وما عليّ عمله غداً ، وأنا أدخن سيجارة . . . . مازلت في مثل هذا الوقت وهذه الحالة ، أحس بالوحدة والحزن ، والحاجة لتلك الموسيقى ، وذاك الانسان الذي أشعر الآن ، انه كان صديقي في تلك المدينة ، وكل ليل لا أسمع موسيقى هذا الانسان ، أشعر بالاسى ، كمن فقد حبيباً ، أو صديقاً أو أبا ، وأحن إلى تلك المدينة ، وتلك الموسيقى وذاك الانسان ، حنين الرجل إلى امرأة بعيدة .

١٩٧٤

* * *

وردة في غابة

عندما سمعت ذاك الاسم ، وتلك الاخبار ، تذكرت تلك الرائحة ، ذاك الزمن ، وتلك الرحلة البائسة إلى القرية منذ عامين :

* * *

في تلك القرية ولدت . لا يذكر الانسان شيئا مما يحدث له قبل الرابعة ، لكن في هذه السن تغوص وتنطبع في النفس أقوى الاحساسات ، اقوى المشاهد والذكريات ، ومنها ما أتذكره منذ ذاك الزمن ، وحتى الآن : رائحة الزعتر في صباحات الحقول الندية .

* * *

بعد أن كبرت عرفت أن قريتي كان اسمها « القيسية » وأن أبي كان فلاحا ، وأن قريتي كانت منفردة ، وان بيتنا كان منفردا في رأس جبل يطل على البحر البعيد ،

قرب غابة صغيرة كثيفة ، وأراض شاسعة لم تكسر ينمو فيها الشيح والبلان والزوفة ، ينمو فيها الزعتر . كالصور الغائمة المتداخلة أذكر كل هذه المشاهد .

* * *

أذكر : كان عند أبي ثلاث غنمات وبقرة وعنزتان ، وكانت امي ترعى قطيعها الصغير في تلك الارض الشاسعة ، البور ، حيث ينمو الشيح والبلان والزوفة ، حيث ينمو الزعتر . كانت أمي تأخذني معها ، تجلسني قربها على صخرة سوداء وسط هذه الارض البوار وتعلمني :

– هذا شيح

– هذا بلان

– هذه زوفة

– هذا زعتر

ومن يومها انزرع في نفسي هذا الحب لشرب الزوفة ، وذاك الحب الاقوى للزعتر ، لرائحة الزعتر في أمسيات الحقول الندية .

* * *

تمضي الأيام ، والانسان يتغير : يترك الانسان أرض الميلاد نحو المدينة . يغادر الاولاد الطفولة . يترك الكهول الحياة . يذهب الشباب خارج الوطن . تلد النساء .يقتل الجنود في الحروب . تشرق الشمس. يطلع القمر ويغيب لكن ثمة شيء يبقى بالنسبة للانسان . بالنسبة لي كان هذا الشيء الذي يبقى هو : رائحة الزعتر في الحقول الندية .

* * *

ترك والدي القرية ، نزل إلى المدينة ، واشتغل مع عمال ورشة فتح طريق ، ومع الورشة انتقل من مدينة إلى أخرى ، ومن مكان إلى مكان كنت ابتعد عن القرية ، وكنت أكبر ، ومن مكان إلى مكان كنت احمل معي تلك الرائحة : رائحة الزعتر في حقول المساء الساكنة .

* * *

تتغير الامكنة : يمرح الاطفال في السهول . يتسلق الاطفال الجبال . يسبحون في البحر . يطاردون العصافير ، ويخربون الاعشاش . يبكي طفل في ليالي الشتاء الباردة ويدفء آخر ، يضرب أب طفله فتبكي الام . يركض الطفل حافيا في الحارة ، يعرى . ينتقل الأب إلى مكان

آخر مع ورشته . هكذا ينمو الاطفال . هكذا الحياة تنمو ، لكن تبقى في الذاكرة رائحة الزعتر ، رائحة الزعتر في ليالي الصيف المقمرة .

* * *

في طرطوس رأيت البحر للمرة الاولى عن قرب ، وفي دير الزور رأيت الصحراء ، ورأيت النهر الكبير والجسر المعلق والجمل والنساء المحجبات وعيون البدو القاسية . في حلب رأيت القلعة وزحمة السيارات والحديقة العامة . في دمشق رأيت الجامع الاموي وسوق الحميدية وجبل قاسيون ، لكن بقيت رائحة الزعتر هي الاقوى في ذاكرتي .

* * *

مما حولهم يتعلم الاطفال : من شحاد يرونه في شارع . من أعمى يغني . من رجل كبير يضرب طفلا . من امرأة تبكي . من جنازة ابن الجيران الذي قتل في الحرب . من نملة تحمل حبة حنطة ، من شجرة تهتز لكن تصمد في الريح . من شرطي يطارد طفلا يبيع سجائر مهربة ،

من كل هذا يتعلم الاطفال ، يتعلم الاطفال من ذاكرة تبقى فيها رائحة الزعتر في حقول القرية .

• • •

باكراً مات أبي ، وتركنا : أمي واخوتي الثلاثة وأنا الذي كان في الثانية عشر ، وقتها كنا نسكن في القامشلي ، وكان أبي قد بدأ يعمل منذ شهر عاملا في البلدية .

• • •

من حياة « الغسيل » تربي المرأة اطفالها ، من تنظيف البيوت ومن الاصوات الناهرة للسيدات والسادة . ، من الجوع . ، من الخوف ، من البرد والمذلة ، من الأمل والإصرار والثقة بالحياة والمستقبل ، من كل ذلك تستل المرأة لقمة لطفل يجلس على مقعد في الصف ، او يركض في أزقة الحارة ، ويتذكر رائحة الزعتر في بلاد هجرها .

• • •

بعد شهادة الدراسة الاعدادية ، دخلت دار المعلمين ، بعد أن تخرجت تنقلت وعلمت في كل قرى الجزيرة ، تعرفت على حياة الفلاحين الفقراء الذين لا يملكون الا ايديهم واصرارهم . تعرفت على الاقطاعيين الذين يبذرون

أموالهم في ملاهي حلب . لكن ، وحتّى في حقول الجزيرة الرمادية الشاسعة ، كنت أشم رائحة الزعتر .

* * *

مما حوله يتعلم الرجل : من اقطاعي يضرب فلاحا ، من طفل لا يلبس حذاء ، من طفلة ترتجف في البرد . من صبي ترك المدرسة إلى ورشة حداد . من امرأة تنظف بيوت الناس لتعيل أسرتها ، من حروب خاسرة ، من الكتب ، من فقير يخفي جوعه ، من زعتر يبقى في الذاكرة يتعلم الرجل .

* * *

ذات يوم ، قالت لي أمي : سنعود ، سنعود لنزور تلك الغابة الصغيرة ، لنزور ذلك البيت . سنعود لقد اشتقت إلى القرية .

وكنت اريد الذهاب لشم رائحة الزعتر في الصباحات الندية ، لرؤية الزعتر .

* * *

يحمل الانسان ذاكرة ، فيها يخبىء الذكريات الطيبة

والذكريات الحزينة ، مشاهد الطفولة الاولى . صورة أب يحمل في المساء كيسا مملوءا بالعنب . صوت عنزة ترعى ، مشهد الأب وهو يضرب الام . صورة فلاح وراء الثور . وجه زميل دراسة مات . يحمل الانسان ذاكرة ، فيها يخبىء مشاهد كثيرة ، أنا كنت اخبىء في ذاكرتي رائحة الزعتر في تلك البلاد .

* * *

في طريق الزيارة إلى القرية ، مررنا على حلب ، أعدت تذكرها ، تفرجنا على آثارها وأسواقها القديمة . وفي أسواق حلب القديمة شممت رائحة قريبة من الرائحة التي احملها في ذاكرتي ، قيل لي انها رائحة الزعتر ، رأيت مسحوقاً احمر معلبا في أكياس . ليس زعترا ما أشم وما أرى . في كياني احمل رائحة الزعتر الاخضر في حقول القرية الصباحية . بعد حلب ذهبنا إلى اللاذقية ، وهكذا إلى البحر ، سريعا تآلفنا ، سهرنا تلك الليلة مع البحر . لكني كنت احس البحر بلا زعتر ، مثل رجل بلا ذاكرة، مثلنا – امي واخوتي وأنا – دون حنين للقرية ورائحة الزعتر في الصباحات الندية .

في الذاكرة لا يحمل الانسان مجرد مشاهد ، انه يحمل زمانا ،طفولة الروح الابدية ،ارض الميلاد ، وطن الملامسة الاولى . في الذاكرة يأخذ المكان شكل الزمان ، ويأخذ الزمان شكل المكان . في الذاكرة يأخذ الماضي شكل زهرة بعيدة – قريبة ، ويأخذ المستقبل شكل امل له وجه حقول الصباح في القرية ، وله رائحة الزعتر . في الذاكرة يسكن الوطن ، كوردة في غابة .

* * *

من اللاذقية سرنا على الشريط الساحلي الازرق والاخضر إلى طرطوس ، طرطوس بحر الرؤية الأولى ،رمل الطفولة، المدينة الاولى في عين طفل ، ومن طرطوس استأجرنا سيارة إلى القرية .

* * *

لماذا يزور أمثالنا هذه القرية ؟ ! لماذا يحمل الانسان ذاكرة ؟ ! لماذا الوطن البعيد كسكين في الذاكرة ؟ لماذا لا توجد أشجار بلا جذور ؟ لماذا تعود الطيور والاسماك إلى اوطانها ؟ كنا نعود إلى صباحات القرية الندية ، إلى

رائحة الزعتر ، إلى زمن مستعاد. كنا نحاول القبض على طفولة هاربة ، على بلاد ضائعة .

* * *

ذهبنا إلى القرية ، إلى خربة ذاك البيت المنفرد ، اعدنا رؤية البحر البعيد . شممت رائحة الزعتر قبل أن أراه ، وعندما تجولت في الحقول لم أر الزعتر . رأيت حقولا شاسعة من جفاني البلان والبقص والقطلب ، وما كان هناك زعتر ، سألت راعيا يرعى بضع معزات هناك عن الزعتر فقال لي :

منذ خمس سنوات وتجار حلب يأتون إلى القرية ، ويعطون اطفال القرية ونساءها النقود ليحصدوا لهم الزعتر ، ويقولون بأنهم يأخلون الزعتر ويبيعونه في أكياس ، أن خمس سنوات من هذا الحصاد المتواصل للزعتر جعلت الزعتر يكاد ينقطع من كل هذا التل ، ربما تعود جذور الزعتر فتفرع في أعوام قادمة .

في الاراضي الواسعة تجولت ، وأنا ابحث عن جذور

الزعتر ، بين مسافة وأخرى كنت اميز نبتة صغيرة نامية فوق بقايا جفنة صغيرة ذات جذور كثيفة ، فأنحني على النبتة أشمها عميقا وأتخيلها نبتة كبيرة ، تملأ الحقول والبلاد .

١٩٧٦

● ●

احبك ايتها الشجرة

ما كانت سنديانة ، وما كانت بلوطة ، بل وما كانت زيتونة . ما كانت شجرة ذات ظل ، وما كانت شجرة ذات حطب بل وما كانت شجرة ذات ثمر . كانت حورة ذات ارتفاع مدهش ، تنتصب بين جبلين ، قرب عين ماء . لا للحطب ولا للظل ، ولا للثمر ، بل — ربما — لتذكر الناس انه حيث يكون الماء ، يكون الشجر .

ما عرفناها الا هكذا : « حورة العين » . على جذعها نقشت اسماء عديدة، بجانبها تبودلت قبل كثيرة ، من ارتفاعها دهشت كل عقول الاطفال في القرية ، من عدم فائدتها تأفف بعض العقلاء ، لكنها كانت خضراء عالية ، مثل ليلة صيفية مقمرة . كان الناس يحبون الحورة ولايلتفتون إلى صنوبرة صغيرة تنمو على مسافة قريبة منها .

* * *

عند جذع الحورة قبلت سهام للمرة الاولى ذات ليل خريفي . عند جذع الحورة عاهد حسين سميرة على

الزواج ، وانفصل محمود عن فاطمة . عند جذع الحورة تعارك يوسف مع علي . عند جذع الحورة تصالح أهل قريتنا مع أهالي قرية القيسية بعد أن تنازعوا حول ماء العين . . عند جذع الحورة . . عند جذع . . عند . . .
وما كانت ذات ظل ، بل وما كانت ذات ثمر . كانت شبه وحيدة ترتفع نحو الاعلى ، دون أن تبالي بصنوبرة صغيرة ، تنمو على مهل قريبا منها .

* * *

– إلى أين أنت ذاهب ؟

– إلى عند الحورة

* * * *

– أين تسهرون الليلة ؟

– عند الحورة

* * * *

– أين أراك يا فاطمة الليلة ؟

– عند الحورة

كنا نكبر والحورة في دمنا . نهاجر والحورة تشدنا .

يرسل المجندون سلاماتهم إلى أهلهم وحبيباتهم ، وإلى حورة عند العين ، يشرب دراب من ماء العين ، ويقعد إلى حجر مركونة على جذع الحورة ! يسند ظهره ويرتاح ، وبعدها يتابع مسيره دون أن ينتبه إلى صنوبرة صغيرة تنمو قريبا منه. يتحلق الشباب ، مشابكين ايديهم ، وبينهم ، وسط الحلقة ، ترتفع الحورة كقامة فتاة ، يكادون في دبكتهم يدوسون صنوبرة صغيرة تنمو ، لكن الزمن يجري كنهر ، وكنهر ، يأخذ الزمن في مجراه حتى الاشجار .

* * *

الزمن يجري ، والانسان هذا الشاهد الابدي يرى ويروي كل شيء ، الزمن يجري ، والاوراق الخضراء تصفر ثم تسقط ، ولم أكن وحدي الذي رأى اصفرار الاوراق في الربيع . كنت ممن رأى الدود يتكاثر عند اسفل جذع الحورة. كنت ممن رأى الحورة عارية في الصيف ، تنتصب مثل عمود اسمنتي إلى جانبه صنوبرة صغيرة بدأت ترمي ظلا .

• • •

— انظروا ما أكثر الدود عند الحورة ! !

– انه يسعى حولها مثلنا عندما كنا صغارا

* * * *

– انظروا كيف يتسلق الدود الحورة ! !

– انه يتسلقها مثلنا عندما كنا صغارا

* * * *

– انظروا كيف يبست الحورة ! !

– انظروا صفرة الاوراق في الربيع ! !

* * *

كنت ممن رأى صفرة الاوراق في الربيع . كنت ممن رأى الدود يسعى حول جذع الحورة ، وعليه ، كنت ممن شهد الحورة مستلقية على الارض مثل ذراع مفصولة عن جسد ، كنت ممن رأى – كثيراً – جذوع الاشجار تسيل في مجاري الانهار ، وكنت ممن رأى الصنوبر ينمو ، حتى وان لم ينتبه اليه احد .

* * *

لكن ، ليس هذا وقت التفجع او المراثي ! انه أوان النظر في تفاصيل الاشياء وفك رموز الطبيعة ، والتحديق

في الحقيقة ؛في حورة يابسة مستلقية على الارض مثل حديدة مرمية في فلاة . ليست لحظة التفجع أو البكاء ، بل هي وقفة التذكر تذكر الشجر والماء والماضي وضوء القمر والحلم – ذات يوم – بالمستقبل والشجر ، فما وقوفي تحت هذه الصنوبرة اليافعة أنا واطفالي للبكاء ، بل للعبرة، من شجرة كانت باسقة ذات يوم .

* * *

منذ عام ، والحورة اليابسة ، ترقد على الارض ، متشققة مثل جثة متفسخة ، اما الاطفال والفتيات والشبان ، فقد دخلت حياتهم الصنوبرة مكان الحورة ، أصبحوا يأتون إلى ظل الصنوبرة السميك ، يقعدون ويستلقون ويسمعون صوت الريح المنسابة بين اغصانها الخضراء في كل الفصول ، وما من احد يبالي بالحورة ، وغداً يأخذونها ، وبعدها ينساها الناس .

* * *

أمامك ايتهـــا الشجرة ، ايتهـــا الحورة التي قصفتها الريح بعد أن نخرها الدود. امامك ايتها الشجرة التي رافقت طفولتي ، امامك . . . امامك لا املك شيئاً

اقوله ، انني – فقط – أتبع اطفالي ، واستلقي معهم تحت هذه الصنوبرة الخضراء دائماً ، واذا كان من العسير علي أن انساك ايتها الحورة ، فالاطفال بعد الان لن يعرفوك .

١٩٧٦



الحجارة الملونة

حتى في الليالي

– الليالي التي هي للحب والفرح والسكن –

وتحت ضوء القمر

القمر الجميل والرائع

كنت أرى عمال مقالع الحجارة

وعمال البناء

يرفعون البيوت الجميلة

– البيوت التي تليق بالانسان –

* *

تحت ضوء هذا القمر

وفي قلب هذا الليل

الليل الذي هو للفرح والحب

والسكن – كما تعرفون –

كنت أسأل نفسي

وأسأل هذا الزمان :

متى يسكن هؤلاء العمال

البيوت التي يرفعون ؟!

* * *

في الصباح حملت سؤالي

— الذي هو عذابي —

وألقيته ، كصرة فيها زوادة ،

بين يدي هؤلاء الرجال . . رفاقي »

* « راوي قصة الحجارة الملونة

* * * * *

حرفيا ، ومثلما تنص تعليمات شرطة المرور ، كان وبسرعة عادية ، يقود دراجته ، في الطريق الى معمله ، وعلى الجانب الايمن من الطريق ، عندما رأى سيارة نقل حجارة — قلاب — مندفعة بأقصى سرعة وباتجاهه ، خفف سرعته وتيامن أكثر ، وبعدها لم يعرف ماذا حدث له ، لكني ، أنا الموجود آنذاك في الشارع ، رأيت كل شيء ، كل ما حدث :

كانت القلاب مسرعة ، وكان الشارع منحدرا ،

زلقا ، بتأثير مطر خريفي خفيف ، وباتجاه القلاب من طرف الشارع الآخر ، كان ثمة سيارة صغيرة فارهة جدا ، وبين السيارتين كانت الدراجة ، وراكبها ، وكنت أرى ما يحدث :

داس سائق القلاب على كوابحه فتزحلقت السيارة ، واندفعت الحجارة التي في صندوقها باتجاه مقصورة السائق . تزحلق السيارة وميلانها ، ثم انقلابها ، وثقل الحجارة جعل السيارة تنكسر — بالضبط تنكسر — وتنقسم إلى قسمين ، اصطدم الاول منهمـــا بالسيارة الصغيرة الفارهة ، بينما انقلبت حجارة القسم الثاني على الدراجة ، وعلى راكب الدراجة ، وما عدت اذكر ، وربما لم أر تفاصيل المشهد الذي برق أمامي ، لكني رأيت سائق الدراجة مصلوبا على الارض ، وفوق رأسه حجر بيضاء ، وعلى صدره استقرت ثانية ، وكان على الدراجة حجرتان .

كانت أحجارا ، بيضاء ، مدقوقة ، مستطيلة ، جاهزة للبناء . وكان من الممكن أن تنتهي القصة هنا ، تماما مثلما انتهت حياة هذا العامل راكب الدراجة — عرفت انه عامل فيما بعد — ومثلما انتهت — كذلك —

حياة سائق القلاب ، لكن قصة أخرى كانت قد بدأت ، قصتي أنا — الرائي ، الراوي — أو قصة تلك الحجارة ، أو ذاك الحجر الذي كان على رأس العامل . . . لا أدري :

كان حجرا أبيض ، مدقوقاً ، مستطيلا ، جاهزا للبناء ، وكان يستلقي — هل اقول بهدوء ؟ ! — فوق رأس العامل ، وقد خالط نقاء بياض هذا الحجر ، احمرار دم رأس العامل المفجوج . ووقفت أتفرج :

أتت شرطة النجدة ، شرطة المرور ، قاسوا المسافات ، غطوا الجثتين ، نقلوا سائق السيارة الصغيرة الفارهة إلى المستشفى ، نقلوا العامل القتيل ، وسائق القلاب — فيما بعد — إلى المستشفى ثم الى البيت ، ثم إلى . . تعرفون . اما انا فقد بقيت انتظر مصير الحجارة التي تدحرجت من القلاب وأثنتان منها ملونتان بدم العامل القتيل — بامكان كاتب آخر أن يقول ملوثتان بالدم ، لكن تلك قضية مبدأ بل هي مسألة شرف الكتابة عموما — . . . . إلى أن أتت سيارة قلاب أخرى يركب إلى جانب سائقها رجل سمين أنيق عرفت انه متعهد قلع وتصنيع هذه الحجارة . من القلاب التي أتت ، نزل عمال مغبرو الوجوه والثياب — كانوا مغبرين لأنهم عمال مقالع حجارة ، وليس لان

الكاتب مولع بالوصف والتلوين كما يحدث أحيانا ـ
نقلت الحجارة المتفرقة على الارض ، ومعها ـ بطبيعة
الامر ـ الحجرتان الملونتان بالدم ، ووضعت في صندوق
القلاب . . وسارت السيارة . . . ولا أعرف من أين
جاءني هذا الخاطر : أن أتبع هذه السيارة لأرى مصير
الحجرتين الملونتين ، وهكذا ذهبت وراء السيارة .

وصلت السيارة الحي الجديد والمسمى بالشهباء ،
وهو مجموعة قصور فخمة جديدة ، وهناك امام قصر
جديد يبنى / الآن صرت أعرف انه لموظف كبير ترك
وظيفته ، وكان يرتشي / ـ أفرغت السيارة حمولتها:
ارتفع قلاب السيارة فتزحلقت الحجارة ، واستقرت
كومة على الارض ، وبينهـــا الحجرتان الملونتان
بالاحمر .

كان البناء يرتفع حجرة فوق حجرة ، وكان مهندس
شاب يراقب البناء ، بينما صاحب القصر واقف يتفرج ،
ومتعهد قلع وتقطيع ونقل الحجارة يستغفر الله ، ويطلب
رحمته وهو يحكي لصاحب العمارة ما حدث ويتساءل
بكم سيرضي اهل الضحيتين ؟ راجيا من صاحب القصر

مساعدته وكنت واقفا اتفرج على القصور وعلى الاشجار ،
وعلى السماء ، وعلى العمال ، وعلى القصر الجديد ،
وعلى الفراغات القريبة التي ستمتلىء قريبا بالقصور ،
وعلى الحجرتين الملونتين بالدم . طال بقائي واقفا ،
متفرجا وكالأبله اكثر من ساعتين إلى أن رأيت البناء
يتناول الحجرتين الملونتين بالدم الاحمر ، ويضعهما
في احد مداميك الشرفة التي ستطل ذات يوم على الحديقة ،
وعندها ذهبت ، ذهبت وليس في رأسي سوى الفراغ ،
لكني في الليل عدت / متى قررت هذا ؟!عدت ، وربما
اكون تصرفت كمراهق او كمصاب بمرض الطفولة
اليسارية / ممكن جدا أن يقال هذا أو أكثر !!عدت
وفعلتها : لقد هدمت الحجرتين الملونتين بالدم ، وسرقتهما ،
وهاهما في غرفتي وتعالوا لتتفرجوا عليهما ، لكن الاخطر
من سرقة هاتين الحجرتين انني بدأت افكر بسرقة كل
القصور وكما تعرفون ، وحدي لا استطيع سرقة أكثر
من هاتين ، وربما عشر حجرات على الأكثر الأكثر
فهل تسرقون معي كل هذه الحجارة ؟؟؟؟ .

١٩٧٥

الفهرس

القصة	الصفحة
حكايات	
١ – الحرب والسلم	٧
٢ – الكلمات المتقاطعة	١١
٣ – الأزهار كالنساء	١٣
٤ – الحفلة	١٧
قصص واقعية	٢٥
نشيج يشق الصدر	٣١
حبيبتي أغلقت النافذة	٣٩
غرفة على السطح	٤٥
العودة الى البيت	٥٥
النخلة المضيئة	٦١
المصعد والبحر	٦٩
الحلم والنهر	٧٧
تلك المدينة . . . تلك البلاد	٨٣

القصة	الصفحة
وردة في غابة	٨٧
امامك أيتها الشجرة	٩٧
الحجارة الملونة	١٠٣

* * *

صدر للكاتب

- روايات:

هكذا.. كالنهر - ١٩٨٦
الأشجار الصغيرة - ١٩٩٩
أجمل السنوات - ١٩٩٩

- قصص:

الأزمنة الحديثة - ١٩٧٤
جيران البحر -١٩٧٦
النخلة المضيئة - ١٩٧٨
المدن الساحلية - ١٩٧٩
بلاد كالزيتون - ١٩٨٧
ثلاثة فناجين قهوة ١٩٩٩

- نقد:

المغامرة المعقدة ١٩٧٦
السهم والدائرة ١٩٧٩
الرواية والواقع ١٩٨١
انكسار الأحلام ١٩٨٧
تكوين الرواية العربية ١٩٩٠
الرواية واليوتوبيا ١٩٩٥

- دراسات فكرية:

مسائل راهنة - ١٩٨٦
الثقافة- السياسة- السلطة ١٩٨٩
المجتمع المدني والعلمنة - ١٩٩٤

النخلة المضيئة



٠٠٢١

مطبعة اليازجي